
@ketab_n
2.1.2015
استديو بيروت
هالة كوثراني
رواية
@ketab_n
دار الساقي

هالة كوثراني

استديو بيروت



دار الساقي

تصميم الغلاف:

ماريا شعيب

الطبعة الأولى ٢٠٠٨

ISBN 978-1-85516-307-2

دار الساقي
بناية تابت، شارع أمين منيمنة (نزلة السارولا)، الحمراء، ص.ب: ١١٣/٥٣٤٢ بيروت، لبنان
الرمز البريدي: ٦١١٤ ـ ٢٠٣٣
هاتف: ٣٤٧٤٤٢ (٠١)، فاكس: ٧٣٧٢٥٦ (٠١)

e-mail: alsaqi@cyberia.net.lb

في لحظة سريعة جدّاً وقع الكتاب الأسود من يديّ. سمعت دويّ سقوطه، واندفعت نحوه. بعدما أعدته إليّ، لمحت وجهاً تستنكر قسوته حماقتي المزعجة. وحين مشيتُ نحو الضوء باتجاه المصعد شممتُ عطراً سكرياً. إلى جانبي وقف رجل ستّوني. تأخّر المصعد. تأخّر أيضاً في الفيلم الألماني الذي كنت أشاهده. لن أعرف نهاية الفيلم اليوم. إذا سمح لي مزاج ربيع، أكمله الليلة. الآن أنتظر أن أعيش فيلماً جديداً من أفلام أيامي الجديدة. كلّما مشيت في الحيّ حيث انتقلت للعيش منذ عام بعد عودتي مع ربيع من مونتريال، تعزف أذناي اللحن نفسه الذي ورّطني وأتى بي إلى هنا. تصيبني أنغامه بنوع من الرضا. لحن يأتيني من الطفولة، من صوت أمّي.

ثمّة ما شدّني إلى العودة. حلم بعيد ورائحة دافئة وتوق إلى إحساس ما لم أعرف وصفه. إحساس يضيع بين الحنين والرغبة في مواجهة المشاهد المقصوصة من أجل اكتمالها. كأنني أبحث عن خيبة كبرى أو عن مفاجأة. في داخلي أرجو أن تكون المفاجأة سارّة وأن أقول لربيع بفخر وسعادة «أرأيتَ كيف كنا نعيش هناك في مونتريال؟».

أمشي أنا والكتاب. ولا أمشي من دون كتاب. أشدّه إلى صدري وأستسلم لقدمَيّ وللفرجة. ما كان أبي يفهم أسباب تسمّري أمام النافذة بعد عودتي من المدرسة. ذلك طقس لم أتخلّ عنه برغم تهم الفضول والبحث عن المشكلات وغياب الخجل، التي لم أعرف الهروب منها. ثمة أيضاً تهم أخرى لا تقلّ خطراً.

الكتاب رفيقي إلى مغامرات مهنتي. أتخيّل أنني مع كتاب في قطار متى أحسست بأنني أقترب من مغامرة جديدة. وقبل سفري الكبير وطوافي في أوروبا ثم استقراري في كندا، لاحظت أنني لم أركب قطاراً في حياتي. فشغلني الإصرار على السفر و«البحث عن نفسي» كما قلت لأبي.

اتّصلت بي ريما مساء أمس. لكن مَن تكون ريما هذه؟ طلبتْ بأدب شديد وبقليل من الخجل أن نلتقي. وأضافت أن الموضوع مهمّ جداً بالنسبة إليها.

كنتُ في البيت مع ربيع. وكما أصبحت أفعل في سهراتي البيتية، أحاول فهم هدوء ربيع، وأحاول أيضاً إهمال قلقه. صوتها قال إنها صبيّة وهي قالت إنها تريد أن تراني. سألتُها هل سبقت أن شاهدتْ أحد أفلامي الوثائقية وهل كانت تفضّل أن تنتظر عرض فيلمي الجديد قبل أن نلتقي. لكنها أصرّت على اللقاء. سؤالها عني بصفتي مخرجة أعفاني من استيضاحها سبب الاتّصال. كان صمت ربيع قد أثر في مزاجي. استعجلت إنهاء الاتّصال، استعجلت الصمت. لكنني كنت مع ريما هذه لطيفة كعادتي. ولطافتي تُتعبني أحياناً.

أخاف من أن أجرح علاقتي بالآخرين. ربيع ينتقد لطافتي التي يقول إنها رغبة في كسب محبّة الجميع. لطافتي وغموض ربما جعلاني أنتظر لقائي بها. ففي صوتها حزن أعرفه. الحزن في صوتها ليس غريباً عني.

لا أستطيع أيضاً أن أتحكّم بمخيّلتي. رسمت لوجهها عينين وشفتين، ولصوتها أنفاً وعنقاً. قالت إنها تحاول العمل في الصحافة وإن تجربتها تلك مجرّد جسر تعبره بغية الوصول إلى أشخاص مثلي.

لم أعرف ما أستطيع أن أضيفه بعد ما قالته، أسعدني ما قالته وربّما ضحكت عليّ به فوعدتها بلقاء قريب. «نلتقي غداً إذا أردت». أقفلت سريعاً مستعجلة الصمت. ربيع لا يعلّق على المشهد. لا يسأل ولا ينتظر أن أشرح له ما حدث. ربيع يحدّق إلى فنجان الشاي. وأنا أحبّه كلّ لحظة. أجّلت أسئلتي عن صمته. وأجّلت أيّ صدام بيننا.

أصحاب الوجوه المتنقّلة في الشوارع يتكلّمون مع أنفسهم دون أن يحرّكوا شفاههم. يفكرون، يخططون، لكنهم لا ينتبهون إلى حركة أجسامهم وهي تمشي نحو هدف محدّد أو هدف غير محدّد. وأنا الآن أمشي مثلما يمشون. لحظة وصلت إلى البلد أصبحت مثلهم. أمشي وأنا أتكلّم مع نفسي.

تركتُ ربيع وحيداً صباحاً ومشيت. لم يشرب قهوته بعد. ولم يقبّلني منذ يومين.

وصلت إلى الحديقة قبل موعدي مع ريما بساعة. شربت رائحة القهوة من كوب بلاستيكي حملته معي. شربت كذلك شوقي إلى ربيع وغضبي منه. فكرت في أن أكتب له كي لا أكسر لعبة الصمت بيننا. أردت أن أكتب له عن رغبتي الملحّة في أن أصبح أُمّاً. ماذا أكتب لربيع الآن؟ كيف يمكن أن تُكتب حياة ومشروع حياة جديدة؟ أريده أن يهدأ، أن يحبّني فقط ويثق بي، أن أنام على صدره كلّ ليلة وتملأ أنفه رائحةُ شعري الذي يعشقه. في الكتب أجد ربيع . أجده في كلّ مكان وكلّ شيء، في أجمل الصفحات أقرأ عينيه. في الكتاب الأسود أيضاً أحمله معي.

فتحت كتابي الأسود واحتميت به. وانتظرت ريما. فكرتُ فيها كأنّها لغز أو مفاجأة. عملي في السينما الوثائقية يسمح بأن يدخل حياتي أشخاص كثيرون ويخرجون منها كشخصيات مناماتي السينمائية بامتياز. فأنا أحلم بأشخاص لا أعرفهم وأعيش في نومي مواقف لم أواجهها. وريما هذه انتظرتها كبطلة أحد أفلامي.

حملت كتابي الأسود بيدي اليمنى ووضعت يدي اليسرى على بطني. أريد أن أتصالح مع ربيع كي أخبره عن خوفي من أن أمشي سريعاً، أو أن أتسلّق الجبل، على طفلنا الذي ما زال فكرة. «مَن أنا؟» سألتُ ربيع مرّة. و«كيف تستطيع أن تجعلني لطيفة دوماً؟». «مَن قال إنك لطيفة دوماً؟» أجابني ربيع بسؤال أحببته.

ابتسمت واختفيت خلف الكتاب الأسود، لكن ريما لمحتني. ارتبكتُ. ليس لأنها صغيرة في السنّ فحسب بل لأنني نسيت للحظة

ما أفعله هنا. نسيت لمَ أنا في هذه الحديقة ولمَ تقف قبالتي فتاة أنيقة كأنّها هيّأت نفسها صباحاً لحفلة عشاء فخمة. وددت لو أستطيع سؤالها: كلّ هذا لي أم لروّاد الحديقة؟ وكانت منذ النظرة الأولى، نظرتي الأولى إليها، تتصرّف بثقة كبيرة بنفسها، كأنني أنا الصبية الصغيرة وهي المخرجة الناضجة أو المفترض أن تكون ناضجة. ما فعلته هو أنني ابتسمت مرّة أخرى. ما زالت الابتسامة قادرة على إنقاذي حين لا أعرف كيف أتصرّف أو ما عليّ أن أقوله. جلست ريما إلى جانبي على المقعد الحجري. تنهّدتْ. الكلام على الطقس ضروري قبل أن تبدأ الكلمات الحفر في القلوب. «الطقس رائع. لم نحسّ بالحرّ الحقيقي بعد. ليتهم يتركوننا نعيش بسلام في هذا البلد، ونستمتع بطقسه وشواطئه. أنتِ على سبيل المثال لماذا عدت؟ ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

سبقتني إلى الأسئلة إذاً. وبدأت بأصعب الأسئلة: بالسؤال الذي تحدّد الإجابة عنه مصير حياتي مع ربيع. «لأسباب عديدة» أجبت. لا بد من ابتسامة عريضة هنا. لكن مَن التي ستبدأ بالبوح؟ مَن التي طلبت لقاء الأخرى؟ وأنا قلقة وخائفة من تركي ربيع هكذا يوم الإجازة. أريده أن يغضب، أن يملأه الغضب بالكلام، أن تتفجّر الكلمات في فمه وأن أسمعها، فيكون هو الخاسر الأوّل في لعبة الصمت. قصدت أن أتركه صباحاً. وغادرت البيت بهدوء كي يفاجئه غيابي ولعله يشتاق إلى حركتي في الشقّة ويحنّ إلى موسيقاي الصباحيّة التي استغنيت عن سماعها منذ قرر الصمت كي يشعر بثقله

الحقيقي وقسوته. لا يمكنني أن أكون المسالمة دوماً وهو يعلن عليّ حرباً.

« شكراً، لا أشرب القهوة»، قالت ريما. «أُمّي كانت تشربها حالما تفتح عينيها صباحاً. أظنّها كانت تفعل ذلك». حين نظرت إلى عينيها، كانت ريما قد بدأت البوح. «ليست قصّتي ما ستقرئينه. الأشخاص هنا يتشابهون. لربّما عرفت ذلك لكونك عشت في الخارج. ثمة مصائر جاهزة يواجهونها برغم الفروق بين حكاية وأخرى. القصّة الواحدة يمكن أن تكون قصّة العشرات من الناس هنا. وأنا أحاول أن أحبّهم هؤلاء، أحاول أن أحبّ الناس كلّهم ولا أستطيع».

لم تقل ريما إنها غاضبة، إن صدرها الذي يتحرّك كلّما انسجمت في الكلام، ويرتفع مع كلّ تنهيدة ثم ينخفض، مشحونٌ بالغضب. دخلت مباشرة منطقة البوح كأنني أعرفها منذ ولدت. «تفلسفت» واستعملت كلمات صعبة ومعقّدة وشرحت عواطف لا تظهر في اللقاء الأول بين مخرجة وصحافية.

«ربّما أبدو لك قويّة. يوحي مظهري أنني قوية. وبرغم صغر سنّي أدعي أنني أفهم الحياة، لكنني في الحقيقة أكتفي بالتفرّج عليها. وكلّما حاولت المواجهة، تراجعت لأسباب أبتكرها وأقتنع بها وأصدّق نفسي حتّى أصبح عدائية ولا أطاق. أصبح متوحّشة. أحبّ الصورة التي صنعتها لنفسي، صورة الصبيّة الغامضة المستعدّة لدخول معركة بالأيدي برغم أنوثتها، الساخطة برغم هدوء وجهها والشرسة. أظنني لا أكبر. ربّما لذلك أرى حياتي صالحة للكتابة.

طفولتي صنعت جميع هذه التشوّهات. لا نغادر طفولتنا، لا نهرب من أيّامها التي تتسرّب من الماضي إلينا، إلى حاضر نظنّه جديداً بريئاً منها».

حاولت أن أفهم ما أرادتني ريما أن أفهمه. حرّكتني مثل لعبة، تحكّمت بنظراتي، بقدرتي على الاستيعاب وتلقّي المفاجآت، أدهشتني. في صوتها مزيج من الحزن والتحدّي، من الدلال والصلابة، من النضج والطفولة... تكلّمت سريعاً وكثّفت كلامها. حملت جُملها معاني مركّزة ووعدت بقصص وأخبار.

أوحت لي ريما أيضاً أنها تعرف عني الكثير. وما سألتها عن سبب درسها حياتي أو كيف عرفت ما عرفته عني. فأنا لست مخرجة مشهورة ولا أصوّر أفلاماً عن المشاهير. حاولتُ أن أظهر لها تأثري ببوحها وبكشفها لي أنا شخصياً ما يعتبر أسرار حياة أو أكثر من حياة. وقد انسجمتُ فعلاً مع كلامها. وحدّقت إلى وجهها وجسمها أيضاً. كذلك غرت من أزيائها، من طريقة جلوسها حين حضنت ركبتيها وشدّتهما إلى صدرها. لا تخجل ريما ولا تعتذر. أنا التي أعتبر نفسي حرّة، إذا صدمت رأسي فكرة الجلوس إلى جانب شخص ألتقيه للمرة الأولى وفي مكان عام كما جلستْ ريما إلى جانبي، اعتذرتُ عن راحتي.

سألتني أسئلة كثيرة عن عودتي إلى البلد وعن حياتي الجديدة، عن فيلمي الذي أنوي تصويره. لم أقف على مسألة مشروع فيلمي المقبل، قلت إنه مجرّد سؤال قد تطرحه عليّ إحدى المعجبات.

أقنعت نفسي بأنها معجبة بأعمالي السابقة، وطرت بخفّة احتفالاً بهذه الفكرة. لم أنتبه إلى عينيها وهما تلمعان في انتظار إجابتي عن سؤال الفيلم المقبل. لأن عينَي ريما لمعتا طوال الوقت. عيناها تتكلّمان أيضاً. في عينيها علامات استفهام عديدة بأحجام مختلفة. عيناها الواسعتان شديدتا السواد. سوادهما غريب. يجعل سواد عينَي ريما الأبيض فيهما أشدّ بياضاً. لحظتُ عينيها في ثانية واحدة، في أقلّ من ثانية. وهي صغيرة في السنّ، في الثانية والعشرين ربّما. نبرة صوتها وعدتني بأخبار أشدّ خطراً ممّا استغربت سماعه من فتاة أراها للمرة الأولى. فقد عرفتُ عن أمّ ريما ما لم أعرفه عن ريما نفسها. وريما قالت إنها ورثت من أمّها شفتيها الممتلئتين وقلقها. «لا أشبه أمّي. الفرق مضحك بين سُمرتي وبياض بشرتها، بين شعري القصير وشعرها الطويل الكثيف. شعرها كحلي دون صبغة. هل سبق أن رأيتِ شعراً كحلياً؟ أحبّ شكل أمّي. أحبّ أن أكون مثلها برغم أنني أخجل من تصرّفاتها خصوصاً إذا كانت بين جمع من الناس، في سهرة أو حفلة عشاء أو مطعم. أخجل من ضحكتها الرنّانة، من صوتها الجذّاب ومن شفتيها. ولا أعرفها جيّداً. وهي لا تعرفني. لا تفهم سبب سخطي، لا تعرف أنني أرسم الحدود ولا أحبّها أن تتخطّاها. ودوماً حين تكتشف ذلك يكون الأوان قد فات، وأكون قد ذكّرتها بما لا أريد أن أذكّرها به، وقلت لها ما يجرحها في الصميم حين أسألها «أين كنت خلال أعوام ماضية طويلة؟» لكننا أيضاً نسهر معاً ونستمع معاً إلى الموسيقى. سهرنا معاً في نادي «تياترو» حيث

عرفت أنها تجيد الغناء وترقص ببراعة أيضاً. وقد غرت منها ليلتذاك.

تعلّمتُ منها أيضاً الهروب من أبي. أخاف من نفسي حين يتعبني وجوده معي في الغرفة نفسها. وأقرف من شعور مستمرّ بالشفقة على زوجته لغيرتها من شبحها، شبح أمي».

من كلامها عليها أحببت أمّ ريما. تشبه بطلة أحد أفلامي التي لم أنجزها بعد. أرغب أيضاً في أن أكونها، أن أتعلّم منها عشق الحياة. أحببت أم ريما ووجدت نفسي أسألها عنها بخجل. «كانت في مصر مع زوجها الثاني الذي كان فناناً وأصبح رجل أعمال. كيف لا يعود الفنان فناناً؟». سألتني ريما أسئلة لا علاقة لي بها، أسئلة مراهقة تخاف من أن تصدمها الحياة بحقائق مغايرة لحقائق الطفولة. ربّما رأت أمّها فيّ مع أنني أكبرها بثلاثة عشر عاماً فحسب. تغزّلت بي. أطرت أناقتي وركّزت على غرامها بلون شعري البرتقالي. والغريب أنني أحسست بشيء من الخجل حين تحدّثت عن بشرتي ولونها وراحت تلمس الهواء كأنها تلمسها، برفق وحنان ترسم على الهواء أشكالاً وخطوطاً كأنها تلوّح بيدها برقّة أو كأنها تاهت في مشهد ضبابي أو حلم. أحسست بأنها لمست بشرتي، لكنها لم تلمسها. ربّما أغمضت عينيها لحظةً ثم فتحتهما وهي تبتسم كأنّها صحت من نوم جميل. كانت نظرة حنان فقط، نظرة محتاجة إلى حنان. ولم أخف منها، لم يذهب ظنّي إلى هناك، إلى اعتقاد أن ريما التي طلبت لقائي وأصرّت عليه، مغرمة بي. لا، ريما طفلة، طفلة قاسية ومتوحّشة.

لم أشعر بالوقت الذي جمعنا. وحين نهضت لأرمي فنجان القهوة

البلاستيكي مع «ظرف» السكّر الصغير في سلّة المهملات، قالت ريما «منذ الصغر أحبّ لون السكّر. أحبّ الأبيض حين يميل إلى الاسمرار. ليس لون السكّر كطعمه. لون السكر أرقى من طعمه». نطقت ريما كلاماً لم أجد له أيّ معنى أو إطار أضعه فيه. لكنه كلام بديع، كلام أحببته. ابتسمتُ لريما مجدّداً. ريما تبوح. عيناها الواسعتان تبعثان فيّ الحيرة والاضطراب، وشعرها القصير جدّاً يفصح عن غضبها. ويشبه صوتها وجهها. كلاهما يقظ وصاحٍ وشرس. ابتسمت لغضب يشتعل في عينيها وخمسة وعشرين سواراً زيّنت يدها وحزام حرّر خصرها ودلّله.

ثم حكت ريما عن نصّ كتبته وتريدني أن أطلع عليه. سمّته سيناريو دون خوف أو تردّد. في حضنها ظهرت أوراق، وهي حرّكت أصابعها كأنّها تعزف عليها.

فوق كتابي الأسود، وضعت ريما أوراقاً برائحة الياسمين. أوراق ناعمة. قالت إنها تغطّي نفسها بها ليلاً. أعطتني ما سمّته نصّاً، سيناريو الفيلم الذي رأته في مناماتها وعاشت كوابيسه. وأعطتني أيضاً رقم هاتفها وعنوان بريدها الإلكتروني.

استمعتُ إليها بأكثر من حاسّة. استمعتُ إليها بمخيّلتي. وتمنيت أن أجلس مكانها وأختبر ضياعها الجميل. وكنت بين كلماتها أفكر في ربيع واتهامه بخفوت رغبتي في التحدّي. لعلّها الحاجة إلى الأمومة والحاجة الطبيعية إلى الاستقرار برغم صعوبته في لبنان الذي اخترت العيش فيه بوعي تامّ. أحببته أيضاً بإرادتي.

نهضت ريما من مكانها وأكّدت لي أنها ستمنحني مدّة كافية كي أقرأ النصّ قبل أن تتصل بي. وشكرتني بعدما أصبحت بعيدة. لم أقدر على أن أطلب منها البقاء كي يطول هذا الصباح الجميل والهادئ. حيّرتني ريما أيضاً. ما عرفت أن أحدّد ما شعرتُ به نحوها، وما دفعني كلامها إلى الإحساس به.

لم أغادر مباشرة بعد مغادرتها. تحمّست لبقية يومي ولشعور بالمتعة. وعدت نفسي بقراءة النص في غرفتي. ولم أستطع ألاّ ألعب بالأوراق، ألاّ أحاول أن أكتشفها. حاولت أيضاً أن أمنع نفسي من إفساد اكتمال متعتي بها، لكنني لم أستطع أن أغمض عينَيّ أو أرفع رأسي. وتلصّصت سريعاً على الكلمات.

الساحة خارج أسوار الحديقة خالية من الناس والسيّارات، كأن البلد نائم في انتظار قبلة أمير منقذ. البلد اليوم في إجازة. وأنا اعتبرت نفسي في مغامرة غامضة أمارس فيها «لطافتي».

في العادة أخبر ربيع كلّ شيء، كلّ ما أعيشه. أطلعه على تفاصيل لقاءاتي ومواعيدي وأفكاري. يحبّ ربيع طريقة سردي التفاصيل وثرثرتي أيضاً. أظنّه يحبّ ثرثرتي. لو ما كان غاضباً، ولو أخبرته عن ريما لطلب مني التعرّف إليها أو دفعه فضوله إلى الكتابة عنها. لكنني أخاف أن أكسر غضبه بقصّة ريما هذه. شيء ما في ريما يمنحني الإحساس بأنني أنظر إلى مرآة أو إلى نسخة مني أكثر تشويقاً وشفافية.

أسرع في المشي مستغربة نوم الشارع. البلد فعلاً في إجازة. أمشي كأنني أنتظر مفاجأة، كأن الناس سيطلّون بغتة من مخابئهم ليهتفوا في وجهي: «فاجأناك!». كم مفاجأة تقدّم الحياة معك يسألني ربيع؟ وأبتسم. ما زلت أطمئنه وأؤدي دور الواثقة بما سيأتي والحكيمة التي تعرف أن الأيام ستحمل لنا الفرج وربّما «الثبات والنبات» و«الصبيان والبنات» أيضاً.

ظهرت لي ريما اليوم مرآة. نظرتُ إليّ فيها. كثيراً ما أجّلت التفكير في أنني كبرت وأن التجاعيد الرفيعة في وجهي حقيقية. شعري أيضاً أحاول كلّ يوم أن أطمئن نفسي عن صحّته. جسمي أدلّله، أعده بأن يتدوّر ويمتلئ بطفل جميل مثل ربيع، أعده بحنان أنفاس كائن صغير يتمسّك بصدري ولا يتخلّى عنه. وأعد صدري بشفتين رقيقتين تمدانني بطاقة جديدة وتنفخان فيّ مزيداً من الفضول كي أبقى دَهشة بالحياة ومشاهدها وكي لا أفقد الأمل. أعد جسمي برائحة من الجنّة تقتحمني، فأخبر نفسي ما أكبر حظّي. طفلي يمشي فيّ. أتخيّله، أراه مثلما أحلم به وأسمع صوت بكائه حين يجوع وأعده بأن يغيّر أبوه رأيه، وأن يأخذ قدومه على محمل الجدّ. جسمي أجهّزه الآن للأمومة. أحتاج إليها سريعاً. ربيع يحتاج إلى أمومتي أيضاً، إلى أن أكون أمّه وحبيبته في الوقت نفسه. ولا أستطيع أن أهمل أحد الدورين على حساب الآخر. أنا أم حبيبي، وقد كنت أغنّي له أجمل أغاني النوم قبل أن يحاول أن يكبر ويجدني خارج دور الأم ودور الحبيبة.

مثل ريما أنا جذّابة كذلك. ربيع يخبرني أنني جذّابة وأحياناً أجبره على أن يخبرني أنني جذّابة، عن العظام في وجهي وشعري الأحمر المجنون وعنقي الذي تُكتب عليه القصائد. وكنت أحتاج دوماً إلى أن يتغزل ربيع بي. ليس لأنني لا أثق بانجذابه نحوي بل كي أحسّ بأن انجذابه ما زال جديداً. لكنني الآن لا أهتمّ بالكلام، أبحث عن بريق العينين ليس إلاّ، لا أستطيع تحمّل أن يخفت هذا البريق أو يختفي. أفكر في ربيع. أمشي وأفكر في ربيع.

الشوارع الخالية من ناسها تخيفني. في الحديقة لم أحاول التنصّت على أحاديث عاشقين. انهمكت بأخبار ريما.

بين اتّصال ريما بي ولقائي بها، استغربت أن تختارني. استغربت أيضاً القوّة في صوتها ونبرته وضياعها بين أسئلة تحمل بعضها في حقيبتها وتمشي على بعضها الآخر وتضع بعضها خواتم وعقوداً.

يذكّرني ربيع كلّ لحظة برغبته في أن نعود إلى مونتريال. لكنني أُدلَّل هنا. كما عدت لا أستطيع تحمّل التعب المجانيّ والبحث مجدّداً عن عمل. يضحك عندما أقول له إنني لم أعد صغيرة. «لم أعد تلميذة»، أقول. و«السينما، أستتابعين أحلامك السينمائية هنا؟» يسأل متهكّماً. لكنني أحبّ ربيع الآن كأنني عثرت عليه منذ أسبوع فقط. وأعود إلى يوم عثرت عليه كلّما ابتسم لي بحنان ما بعد العتاب. وجدتُه أنا. هو لم يجدني وحده. أنا دللته عليّ. اكتشفته في بيروت حيث كان يزور أهله. صادفته مرّتين. التقيته في سينما

«لوميير» خلال عرض فيلمي الساعة الخامسة. في الصيف تخلو دور السينما من زوّارها. كان سهلاً أن أكتشفه وأن يكتشفني. رأيته أنا أوّلاً. أحبّ فكرة أن السينما جمعتنا. في المرّة الأولى كنّا ثلاثة في انتظار عرض الفيلم. وربما بدوت مهتمة جداً بقراءة كلّ كلمة كتبت في ملصق الإعلان عن الفيلم وأبطاله. لكن عينَيّ ابتسمتا له دون أن آمرهما بالابتسام. في لقائنا الثاني ادّعيت اهتمامي مرّة جديدة بـ «الأفيش» الملصق المكتوبة عليه كلمات بحروف ضخمة وأخرى صغيرة أقترب منها وأميل برأسي نحوها ثم أبتعد برزانة واهتمام. وبعد انتهاء الفيلم لم أستطع ألاّ أردّ عليه. علّق على أداء الممثل الرئيسي وسألني رأيي في المشهد الأخير. ثم حملنا الحديث إلى أماكن مختلفة من أمكنة كلّ منّا، إلى طفولتينا أيضاً. أحبّ أن أتكلّم على طفولتي. وأحبّ أخبار اللقاءات الأولى المفتوحة على احتمالات لا تنتهي لتخيّل مشاهد ملوّنة بألوان جديدة. أحبّ أيضاً أن أبحث عن جزء منّي في أخبار شخص اعتبرته قبل ساعات فقط مجهولاً.

قلت لربيع دون خجل إن المصادفة لا بدّ أن تخبئ سرّاً ما بعدما لعبت دورها مرّتين في أقّل من عشرة أيام. ولعبت المصادفة معنا أنا وربيع أجمل أدوارها. اتّصلتُ به أنا بعدما أعطاني رقم هاتفه. ما انتظرتُ طويلاً. قال إنه سيسافر، فاتّصلت. وربّما لو لم يكن مسافراً لما سارعت إلى الاتّصال به. أذكّره بتلك «الفرضية» دوماً. لكنني أعترف له بأنني لم أتردّد لحظة واحدة في الاتّصال به، وبأنني لست

جريئة دوماً. وربّما كانت جرأتي تلك التي ظهرت يوم اتّصلت به للمرّة الأولى، جزءاً من المخطّط الكبير الذي تحرّكتُ في فلكه. ربّما لم أكن أركّز. كنت مخطوفة. «خطفني الحب»، أقول لربيع ضاحكة.

أمشي يوم الإجازة مسلّحة بأوراق ريما. ولا يغادرني الإحساس بأنني في استديو واسع. لكن أين يمكن أن أذهب في يوم هادئ جداً. ما زلت لا أستطيع أن أميّز في بيروت بين الهدوء الحذر والحذر الهادئ وبين أنواع الانتظار المختلفة، انتظار المفاجأة وانتظار الانفجار.

أمشي حيث يصوّر مخرج غير مرئي فيلماً لا ينتهي.

الرجل الأصلع أمامي خائف من رصاصة. فرجال الأمن متأهّبون. تتدلّى من أصابعه حقيبة يد جلدية عريضة سوداء تكاد تلامس الأرض. لا يعبّر الرجل عن خوفه بسهولة، يحاول أن يخفيه بسترة بذلته الرمادية، لكنني ألمحه، ألمح الخوف في قفاه.

كأنني في استديو واسع. لكن من أين أتوا بالحمائم؟ وكيف استطاعوا ابتكار شمس جميلة إلى هذا الحدّ؟ أمشي ولا أسمع صوتاً. أين الناس داخل المتاجر أو خارجها؟ أين التّجار والمشترون؟ أين الجمهور؟ أين عمّال الإضاءة؟ وأين المخرج والممثلون؟ أين الكاميرات والعدّة؟ ثمة رجل استلّ الآن الهاتف العمومي سريعاً كأنه يستلّ سلاحاً من مكان ما، مكان مجهول ووقف داخل حجرة الهاتف

البلاستيكية. أرى شفتيه تتحرّكان، لكنني لا أسمعه. لا أسمع شيئاً. هدوء ثقيل هبط على المنطقة، هدوء أثقل هبط على مناطق عديدة من بيروت حيث أمشي وسط زحمة بلا أصوات ثم أتعب من ضجة بلا زحمة. هكذا كثيراً ما تخيّلتُ أفلام الرعب.

غرت من ريما على ربيع دون أن يراها أو يعرف عنها شيئاً. ما عدت صغيرة في السن. وتعلّمت من ربيع أن التفاؤل شكل من أشكال الغباوة. لا يخاف ربيع من أن أُصدم أو يجرح شعوري. يقول إنني قوية وقادرة على أن أبتسم دوماً. قال لي مرّة في عزّ حماستي لعملي السينمائي والحياة عموماً، إنني لست مثل النجوم الهوليووديين الذين يبدأون من الصفر ويصلون إلى القمّة، وإنني ربّما لن أجد الصفر الذي أبدأ منه. قال لي حقائق جارحة. وأنا اعتبرت أقواله حقائق لأنني أصدّقه على الدوام، وواثقة بأنه لن يكذب عليّ. أغار عليه من ريما أو من نساء يشبهنها. وهو ينتقد الآن رغبتي المملّة في الاستقرار وهدوئي الجديد وكسلي. أنا التي ما كنت يوماً كسلى، وقلّما عرفت الراحة. لكنني أعرف أنني الآن في محطّة بين مرحلتين، وأنني أبحث عن مشروع يحرّكني ويأخذني إلى حيث أستطيع أن أنقذ حياتي مع نفسي ومع ربيع الآن هنا. ريما واجهتني بإحساسي بأنني قديمة ومستهلكة. أحسست بعدما رأيتها بأنني ذابلة وأنني ابتعدت كثيراً عن مراهقتي وصباي الأوّل. ماذا لو قصصتُ شعري اليوم وفاجأت ربيع؟ ربّما بدوت أصغر. ربّما بدوت

أقرب إلى سنّ ريما. ماذا لو قصصت شعري البرتقالي المجنون؟ ماذا لو صوّرت نفسي، وصوّرت رأسي الجديد وأرسلت الصور إلى ربيع. سيضطر عندئذ إلى أن ينظر إليّ. سيراني.

في صالون «ميراج» تغسل أولغا شعر الزبونة. تفركه وتدعكه وتشدّه وهي تفكر. تبالغ أولغا في التركيز على عملها دون أن تقصد المبالغة. تبدو كأنها واقعة في غرام الشَعر، كأنها تحبّ الشَعر الذي تغسله وتخاف عليه من الزيوت والأوساخ والمياه الكلسيّة والشمس والعوامل الطبيعية المؤذية كلّها. وأولغا لا تتوقّف عن التفكير من أجل التحديق إلى التلفزيون، إلى تنورة المغنية في الفيديو كليب أو سيّارة المطرب الذي يشبه المغنية. تمشي ببطء ولا تتكلّم. كأنها تسمع في أذنيها وداخل رأسها كلاماً لا يسمعه الآخرون في الصالون، وربّما رأت ما لا تستطيع زميلاتها والزبائن رؤيته. لا تمزح، لكنها تبتسم رغماً عنها حين تمزح زميلاتها اللواتي يسحبن منها الضحكة بالقوة.

كانت رحلة أولغا من أوكرانيا إلى الصالون البيروتي الذي تعمل فيه منذ أحد عشر عاماً، طويلة جداً. تخللتها محطّة في الإمارات وصفت لي أولغا بعض مشاهدها. وأولغا لم تتجاوز الأربعين وما زالت نضرة ومشرقة. تطمئن النساء عنها ولا يتوقّفن عن الكلام حين تعضّ شفتها السفلى لتدلّ على اهتمامها بالحديث دون أن تشارك فيه أو تردّ عليه. تعرف أولغا عن الزبائن كلّ شيء دون أن ترغب في أن

تعرف عنهم أيّ شيء. تعرف أن التركية العجوز أم عبد الله لن تصبغ شعرها الرمادي كي تبالغ في وضع ظلال الوجنتين ولا يقال عنها إنها «متصابية»، وأن مَي المسيحية ستتحجّب لأنها وقعت في الغرام. أمّا السيّدة ندى، زوجة الطبيب جار صاحبة الصالون، فتعرف أولغا جميع أسرارها. الطبيب نفسه يقصّ شعره في الصالون أحياناً وقد أخبر أولغا بانفصاله عن زوجته قبل أن ينفصل عنها.

وأولغا لا تهتمّ بالطبيب أو زوجته أو بي.

لا أعرف ما الذي يشدّني إلى أولغا. ورثتُ حزناً يشبه الحزن في عينيها. كما أستمتع بصمتها. أحسّ بالاطمئنان حين أسلّم إلى أولغا رأسي. ويغريني وجهها بقصص من حياتها الأوكرانية وأخرى من أيّامها في إمارة الشارقة وأخرى من حياتها اللبنانية المعقّدة. تروي القصص دون أن تتكلّم طويلاً، ترويها بكلمات قليلة بسيطة مقتضبة، كلمات شبه صامتة. وأنا لا أخجل من أن أطرح عليها أسئلتي. وأنتظر كلّما زرت الصالون أن تقول لي أولغا إنها تركت زوجها نسيم، لكنها لا تقول شيئاً. لا تذكر سيرة تركه كأنه قدرها. يغيب الحقد في كلامها عليه مع أنها تعترف بأنه يحوّل حياتها جحيماً أحياناً كثيرة. يختفي فجأة ويترك عمله ثم يطلب منها المال. ويعتصم عند أمه أيّاماً طويلة. يأكل عندها ويشرب ويهمل أولغا وابنتهما ثم يعود كأنّه لم يغب. يعود ليتدخّل في كلّ شيء، في الأغراض التي تشتريها من السوبر ماركت، في علبة الحليب وكيلو اللبنة، في اللون على أظفارها وطول شعرها والكحل في عينيها. لم يتغيّر حين أمضيا مع ابنتهما عاماً

كاملاً في الإمارات حيث سكنت أولغا مع عائلتها شقّة في أمّ القيوين وكانت تقصد صالوناً في أطراف الشارقة. ذلك الصالون كان معتماً. تقفز العتمة إلى عينيها كلّما تذكّرته. وكان كلّ ما فيه أصفر، الكراسي والمناضد والأبواب والستار الذي تتعرّى وراءه النساء من عباءاتهن ثم أزيائهن قبل أن يخضعن لجلسات التدليك. كانت أولغا تقلّم الأظفار مع مارينا التي يعمل زوجها في هندسة الطيران. ما زالت تتصل بمارينا التي تزوّجت ابنتها شاباً إماراتياً. هي التي علّمت أولغا أن تفرك وجهها بقطعة من الثلج قبل النوم. مارينا كانت أجمل ما رأته أولغا في ذلك الصالون وأفضل ما حدث لها في الإمارات. قالت لي أولغا مرّة إنها لم تستطع جمع المال هناك، وإنها أنفقت راتبها على بدل إيجار البيت ومصروفات السيّارة التي اضطرّت إلى شرائها. فكيف تتنقّل تحت تلك الشمس القاسية؟ وزوجها هناك لم يتغيّر. ظنّته سيتغير إذا ابتعد عن أمّه، لكنه كان يتّصل بها طوال الوقت، معظم الوقت. وربما كلّفته الاتصالات عشرين درهماً في اليوم الواحد. أخبرتني أولغا أنه حاول أن يحبّ عمله هناك. ثم هو قرّر العودة وخضعت أولغا لقراره. «لم أهتم بالمكان، فالسأم هو نفسه هنا وهناك. لكنني كنت قد اعتدت العيش في لبنان. اشتقت إلى بيتي وشتولي والطقس وهذا الصالون. استقبلتني المدام صاحبة الصالون كأنني لم أغب عنها. موقفها هذا لم أتوقعه ولن أنساه. حاولت إقناع نسيم قبل العودة بالتركيز على عمله ومحاولة التأقلم مع الحياة هناك وجمع المال. أصرّ على أننا نضحك على أنفسنا ونعيش في

المستوى نفسه لكن بعيداً عن أهله وبلده. أنا لم أهتم، تلك كانت غربتي الثانية. أصبحت قاسية، سلّمت نفسي إلى قراراته. لا يهمّني هنا، هناك، فوق، تحت، لن أحارب من أجل غربة أخرى. لم أعد أحلم أيضاً باللون الأخضر والبرد الشديد ووجه أمّي. لم يعد يهمّني أيّ شيء. لم تقهرني معرفتي بأنه يريد العودة إلى حضن أمّه. قلت لنفسي فليعد. وقد عاد وعدت أنا معه. ابنتي سارة أرادت كذلك العودة إلى أصدقائها. وحدها سارة تستطيع أن ترغمني على أن أقرر، بوصلتي سارة. تأخذني رغباتها إلى حيث لا أعرف الوصول. توجّهني. أسلّم نفسي إليها. المهم أن تكون راضية وأن تكون إلى جانبي، أن أشمّ رائحتها بعد عودتي من العمل، فأستريح».

هدوء غريب يسيطر على الصالون أيضاً، هدوء ما قبل العاصفة. ثم «بونجور» صرخت صبية في أزياء مزركشة حالما دخلت. قبّلت فتيات الصالون كلّهن وطال مشهد التقبيل.

أستطيع أن أدّعي أنني مستعجلة وأن الوقت يحاربني، كما أستطيع أن ألفّ رجلي اليسرى فوق اليمنى ثم أهزّها كي لا أفكر في هذا الوقت كلّه الذي يمضي. لكنني قررت أن أستسلم للوقت، وأن أستمتع بمراقبة صاحبة الصالون التي تدّعي أنها تفهم كلّ شيء وتتكلّم على الطعام في أفخم مطاعم البلد وتعرف أكبر المتاجر، وحين تقول باريس تفتح فمها كأنها تتثاءب. وإذا تركتها إحدى العاملات في الصالون، خصوصاً إذا كانت تنوي الزواج، فلا تعود

تتحدّث عنها أبداً كأنّها لم تكن موجودة، كأنّها لم تعش معها في الصالون كلّ يوم خلال أعوام طويلة، وكأنّها لم تأكل معها المناقيش كلّ صباح وسندويشات الدجاج ظهراً. وإذا سألها أحد الزبائن عنها تجمد الحركة في وجهها ولا تردّ أو تقول إنها لا تعرف عنها أيّ شيء وإن الاتّصالات قطعت بينهما.

أتفرّج. حان دوري. لكنني أريد أن أتفرّج. لن أسمح لأولغا بأن تصفّف شعري الآن. سألتُ أولغا: هل حاولت الهروب من الصالون؟ الهروب من الحياة التي تعيشينها؟ سألتها كي أبرّر لنفسي هروبي من الهروب من مواجهة ربيع. هربتُ كي لا أواجه احتمال أن أعيش وحدي، بعيداً من مشاهد حياتي الحالية مع ربيع، والتي أعشقها برغم كلّ شيء. كأنّه طفل يجب أن أطعمه بيديّ أحياناً، أن أدلّله وأطمئنه إلى أن الحياة جميلة، وأركز على أنها يمكن أن تكون جميلة جداً كذلك. لكن متى أعود إلى العيش لنفسي، أكتب وأقرأ وأطوف في الشوارع أو أمضي اليوم كلّه وأنا أدلّل نفسي؟ ويحقّ لي أيضاً ألا أحتاج إلى أن أخفي عنه قلقي وخوفي كي لا ينفجرا هنا، في الداخل، في داخل الداخل.

فكرت في أن أمضي بقية يومي الهارب هذا في دار للسينما، أن أتنقل بين صالة وأخرى وأشاهد الأفلام المعروضة كلّها. لكنني أفضّل الآن أفلام الواقع في الصالون والذي كثيراً ما وجدته أكثر سينمائية من السينما نفسها. وعدت لا أستطيع أن أشبّه الواقع

بقصص السينما التي بدأت تفقد ولاء مخيّلاتنا لها بعدما تأخّرت في تقليد الواقع . أحياناً تبدو لي بيروت أو القاهرة أو بغداد استديوهات واسعة كبيرة تصوّر فيها أفلام الرعب و«الأكشن» كلّها. ولحظة أمنح نفسي نهاراً جديداً في الصباح ، أقلق من اكتشافي أنني صحوت من كابوس. فحتّى الكوابيس أقلّ سينمائية من الواقع .

ثمة دفء يتسرّب من المشاهد في الصالون إليّ. وتسمح لي أولغا بأن أتمشّى. وقت الغداء، وحين تخفّ زحمة الرؤوس التوّاقة إلى التجدّد، أتمشّى في المساحة التي تسمّى صالون «ميراج». أولغا فهمت أنني «غير طبيعية» اليوم. في أوكرانيا التي أتت منها، تحدث هذه الأمور دوماً. تقتحم الصالون امرأة بلا أفكار وتجلس في الكرسي نفسه خلال ساعات منتظرة أن تعود إليها أفكارها. تتعاطف أولغا معي، وتجيب عن أسئلتي الكثيرة برغم أنها ليست مضطرة إلى التضحية بصمتها إرضاء لفضولي. تبتسم لي أيضاً. وصاحبة الصالون لا تحبّ أن تتحدّث العاملات معنا نحن اللواتي يرتدن محلّها. لم أفهم قاعدة عدم الثرثرة تلك أو ديكتاتورية «المدام»، والتي لا تليق بتنانيرها القصيرة جداً.

حزن أولغا صنع جمالها كلّه. تغلّف وجهها كآبة رومنسية وحنين إلى الصقيع . بين لمحة وأخرى أراها تحضن بين كفّيها فنجاناً، وتلك عادة قديمة من عادات أولغا أو هكذا قررتُ. كأن الفنجان يحميها من كآبتها أو كأنّها تعصره وهي تتوسّل إليه أن يبتلعها. جزء من صورة

أولغا أعادني إلى جزء من صورة ريما التي التقيتها اليوم. وربما كآبة أولغا تشبه كآبة ريما.

أرشيفي تسيطر عليه وجوه نسائية وأسماء لطيفة لكائنات أكثر لطافة. عالمي بمراحله وأجزائه المختلفة تسكنه نساء كثيرات وربيع، وهنالك مشاريع لم تنجز وقصص لم أتركها كلّها خلفي. بقي لي منها ما لم أستطع التخلّي عنه. أولغا بطلة أحد مشاريعي تلك. وأولغا أعود إليها على الدوام خوفاً من أن تغادرني. أعود إليها كلّما ساءت أحوالي وتهت في فراغ تهدّد به زحمة أفكاري.

أولغا تقف خلفي. أراها في المرآة. شامخة جميلة تحمل سلاحها، مجفّف الشعر الأسود. ألعب بأوراق ريما. ألمسها ورقة ورقة. وأقرأ في المشهد الأول، عن فتاة تركب الدراجة النارية وتصف إحساسها بالهواء الذي اقتحمها إلى حدّ الوجع. الهواء الساخن الذي يقذفه سلاح أولغا يتغلغل في جلد رأسي. أحاول منعه بكفي ثم أستسلم. والفتاة في الورقة يدخل الهواء جلدها وتصمت. تظنّ نفسها تصرخ، لكنها في الحقيقة صامتة تماماً. استسلمتْ لمزيج من المتعة والخوف. أغمضت عينيها. أغمضتُ أنا عينَيّ كي لا أرى وجهي في المرآة العريضة. هذه المرّة الأولى التي تطير فيها فوق دراجة نارية. تحاصر يداها خصر شاب قوي البنية، تقرّب جسمها من جسمه، تشدّه إليها، تحمي نفسها به. تنتقم من نفسها، من رغبتها في المغامرة التي لا تموت. تصعد معه إلى سطح البناية التي تسكن إحدى شققها

مع أبيها وعائلته الجديدة. زوجة جديدة وطفل جديد. يناديها القمر: «ريما». ثم يناديها الشاب قوي البنية.

«مدام» تناديني أولغا... أترك ريما. «ليلة سعيدة» قالت له قبل أن تنزل.

«منذ متى لم تدخلي صالة سينما أو تستمعي إلى أغنيات حبّ؟» سألتني. وعرفتُ أنه أحد تلك الأسئلة التي تسوّغ عبرها أولغا كلامها على نفسها، وأنه ليس إلا إنذاراً بأنها ستبدأ البوح. تقول أولغا إنني وحدي بين مُرتادي الصالون كلّهم، رجالهم والنساء، أستطيع أن أجرّها إلى الكلام على أسباب كآبتها التي أصبحت دائمة.

وتلك أبرز أدوات عملي التي تجعلني أغوص فيه سريعاً. كما أجد غريباً أن النساء اللواتي أختارهن بطلات في أفلامي، يفتحن قلوبهن لي وأستعير ألسنتهن. كثيراً ما اعتبرتُ أولغا إحدى بطلات أفلامي المقبلة. وفكرت في سيناريو يصوّر حكاية زواجها من زميلها العربي في أوكرانيا وهبوطها بين أهله الذين حوّلوا حياتها جحيماً. لكن أولغا نفسها أبعدتني عن مشروعي هذا بجملة واحدة حين أخبرتني أن هيام إحدى زبوناتها المفضلات، والتي تدخل الصالون مرّة واحدة في الشهر، ستتزوج. ابتسمت. أعجبني الخبر. وكنت قد أُعجبت بهيام نفسها ولم أستطع أن أمنع نفسي من السؤال عنها إذ دخلت الصالون قبل نحو ثلاثة أشهر. بدت لي خارجة من صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود أو من فيلم مصري في أربعينيات القرن الماضي أو في خمسينياته، فيلم هي بطلته، وهي فيه أخت الباشا أو حبيبته.

وددت أن أسأل أولغا يومذاك «منذ متى تفضّل هيام الكعب العالي؟». بدت هيام كأنّها واقعة في الغرام. أولغا قالت لي إن شعرها بُنّي قبل أن تزيح هيام عنه غطاء رأسها. لو كنت أحمل الكاميرا آنذاك لصوّرتها وهي جالسة قبالة المرآة وباسمة لصورتها فيها. بدت سعيدة بأنوثتها كأنّها في العشرين. أجمل التجاعيد زيّنت وجهها. أنيقة جداً في مظهر سيدة مستعدة في كلّ لحظة لاتّخاذ الوضعيّة المناسبة قبالة الكاميرا. القميص الأبيض الحرير تحت السترة السوداء والجوارب الحرير مع الكعب العالي. حقيبة اليد تنسجم مع الحذاء ومع حركة اليد حين ترفعها. تلمس شعرها واللون الأحمر على شفتيها قبل أن تمحوه. تلصق إصبعها بشفتها الحمراء كأنّها تسرق بعضاً من اللون الأحمر لتضعه على شفتها الثانية.

جلستُ إلى جانبها وتحدّثت إليها. قالت إنها من مدينة بعلبك وإنها تزور بيروت مرّة كلّ شهر. «لكنني لم أغادر بعلبك خلال الحرب الأخيرة». «لم أكن هنا»، قلت لها. «كان يجب أن تري ما فعلوه... مثل فيلم سينما». تفهم عليّ هيام من قبل أن أعرفها. مثلي تحب أفلام السينما وتستشهد بها. وعدتها بزيارة بعلبك، فأعطتني رقم هاتفها. لم يبدُ على هيام أنها تعطي كلّ امرأة تلتقيها في صالون بيروتي رقم هاتفها، إلاّ أنها أعطتني رقم هاتفها ربما لأنها عرفت أنني مخرجة. أخبرتها أنني مخرجة وأنني أعيش مع زوجي في لبنان منذ أقلّ من عام. لمحت في عينيها تلك الحاجة إلى البوح التي أراها في

عينيّ أولغا والتي تدور حولها أفلامي. عدت لا أحتاج إلى أن أسأل أولغا عنها الآن بعدما أصبحت هيام تزورني كلّما زارت بيروت.

أولغا في مرآتي تدلّني عليّ، تدلّني على وجهي في المرآة، على شكل رأسي الجديد. شعري الآن قصير مثل شعر ريما. ليس قصيراً جدّاً، بل تصل أطرافه حتّى العظام الفاصلة بين رقبتي وصدري. استعدت إحساساً قديماً بالرعب سكنني حين قررت أنني أشبه البائعة في متجر الأدوات الكهربائية في حي طاغور حيث كان بيت أهلي القديم قبل أن يدقّوا حجارته ويفرموها. تتسمّر مكانه بناية قبيحة باردة طويلة «نينا تاور». اسم بلا تاريخ احتلّ أجمل مشاهد طفولتي. أجهد لتذكر تفاصيل الشارع كلّه. كنت طفلة أمشي في الزقاق المؤدّي إلى المكتبة، وعندما لمحت البائعة، قررت أن وجهي حين سأكبر سيشبه وجهها. خفت. لم أعرف ما أخافني. لكنني خفت من شعرها القصير. ولم أكن أتخيّل نفسي مستغنية عن خصل تغطي ظهري وتلتف حوله. برغم طفولتي، كنت دوماً مهتمّة بأنوثتي. «سأعلّم طفلتي حين تأتي أن تتمسك بطفولتها وألا تسعى إلى أن تكبر سريعاً»، قلت لربيع قبل أن يصمت وأتضامن مع صمته.

طرت إليه. دقّ قلبي سريعاً. أريد أن أواجهه برأسي الجديد، أن أفاجئه وأستمتع بمفاجأته.

في البيت يشغل ربيع نفسه دوماً بمتابعة الأخبار السياسية في العالم كلّه ما عدا أخبار لبنان. ومنذ دبّت الخلافات بيننا واكتشفنا

ألعاب الصمت، أصبح يشغل نفسه عن مواجهتي بترتيب الكتب في غرفة الجلوس. دوماً يشغل نفسه بأمر ما، فيركّز على التثبّت من أن باب الشقة لا يحدث صريراً وأن حرارة البرّاد في المطبخ مناسبة. كما يستمع إلى موسيقاه، إلى ألبوماته المفضّلة ويعزف بالأقلام والملاعق على حافة المكتبة أو المجلى. ويصفر. يتصرّف كطفل صغير. يغيظني بأصوات ما يشغله عني مع الإصرار على التعبير عن وجوده. سألته قبل أن ينقطع الكلام بيننا عمّا يحتاج إليه هدوء أمسياتنا. ابتسم ربيع. أنا أحتاج إلى الأمومة وسألت نفسي مرّات كثيرة: أين أخبره أنني أنتظر طفلنا؟ كما تخيّلت السيناريو: أين سنكون؟ ومتى؟ في الصبح أم المساء؟ في المقهى أم في البيت أم قبالة البحر؟

لا أريده أن يسافر. كلّما غاب عني، فكرت في ضرورة أن يصل إليّ قبل أن يغيّرني شوقي إليه. فمن الممكن بسهولة أن يتحوّل الشوق حقداً. أتعب إذا احتجت إليه. والتعبُ يحوّل شوقي إليه حقداً عليه.

هل أقبل ما قاله عني قبل أيام. قال إنني منطقية وعقلانية وأحسب تصرّفاتي، وإنني أجيد استخدام عقلي وأبرع في استثمار القرارات بعد التعمّق في درسها. قال إنني بارعة في الحساب. قالها بالفرنسية كأنه يخفف من تأثيرها فيَّ. دُهشت. أولاً لأنني كثيراً ما آمنتُ بقراراتي غير المنطقية والعاطفية في الدرجة الأولى. وقد أحببت جنوني. بعد تصريح ربيع هذا أحسست بالظلم وبأنني أختنق،

وعرفت أنني لا أحتاج إلى أن أذكّره بأنني فنانة. أنا فنانة حقيقية تقودني عواطفي لا حساباتي، وأشعر بالراحة لأنني أبكي سريعاً. وأحب أن أبكي، كما تبكيني مواقف ليست بالضرورة دراماتيكية. وحين أخاف، أبكي. أواجه خوفي بالدموع. حين أخاف أحسّ بالذلّ. والإحساس بالذلّ يغيظني لأنني بسببه أواجه عجزي.

أن يقول لي ربيع إنني أجيد استخدام عقلي إهانة لحبّي له وضياعي فيه ومعه، ولقرار زواجنا السريع الذي كان وما زال مغامرتي الكبرى. لم أدرسه أو أقيسه أو أزنه. رميت نفسي فيه. أعطيته أيامي.

أحمل سلاحي الجديد لمواجهة انهماك ربيع أو ادعاء انهماكه بما يبعده عني ويسمح للوقت بأن يمرّ. أوراق ربما ألمسها واعدة نفسي باكتشاف ما، بمتعة أو بمفاجأة. وصلتني في الوقت المناسب. وإذا لم يعنني ما كُتب فيها وكان جزءاً من لعبة سخيفة لصبيّة طالت مراهقتها، أكتفي بالهروب خلف الأوراق من عينَي ربيع. اشتقت إلى عينيه. اشتقت إلى أن أحكي له عن لقاءاتي اليومية وأن أسمع تعليقه وملاحظاته، إلى ابتسامته الساخرة وأسنانه الصغيرة الشديدة البياض خلف شفتين قال إنهما لي. اشتقت إلى كلماته التي أحسّ بأنها ملكه هو فقط، بأنه اخترعها وبأنها لا يمكن أن تهرب أو تضيع منه. لكلّ كلمة ينطق بها ربيع وزن ولون وصوت ومعنى. يزن ربيع كلّ كلمة يقولها. لا يخرج الكلام منه خفيفاً رخيصاً. دوماً أحس بأنه فكّر من قبل في ما يقوله، وكتبه ربّما وحفظه ثم سمعته أنا منه.

أسرعت إليه. أردته أن يرى رأسي الجديد وأن أسمع تعليقه على قصّة شعري، أن أسمع صوته وأن أضحك عليه لأنه خسر لعبة الصمت هذه المرّة.

بحثت عن عينَي ربيع رغماً عن أوراق ريما. أغلقت باب الشقّة بقوّة كي يعرف أنني وصلت. لعبت معه لعبة الأصوات أيضاً، لعبتَي الصمت والأصوات. ثم سمعت طرقاً مخيفاً على باب الحمام في غرفة نومنا. صوت المطرقة يليه صوت الباب يفتحه ربيع ثم يغلقه بقوّة. ضجّة فظيعة غاضبة حلّت محلّ الصمت. يخاطبني ربيع بلغة جديدة، يهدّدني بغضبه وبشوقه إليّ. كان عليّ أن أطمئن عمّا يحدث في غرفة نومنا، عن باب الحمام على الأقّل. أعرف منذ رأيت ربيع أنه برغم ذكائه طفل طويل القامة، وأنه مثلي لم يكبر بعد. أنا طفلة أيضاً تعيش مع طفل، تربيه وتخاف منه وعليه. ما زلت أحنّ إلى طفولتي. أطالب نفسي بأن أستعير منها مزاجها وجوّها كي ألعب أنا وربيع ألعاباً لا تؤذينا، ألعاب طفلين. رفعت رأسي إليه. لم أتكلّم. أمسكَ بشعري وانحدرت يده إلى بقيّته الغائبة. أغمض عينيه ثم ابتسم. استرحت. بحثت عن كلامه. وأصبحت مستعدة للخسارة. لكنه سبقني إليها. «تبدين أصغر، لكنك لن تبدي أصغر مني. تليق بوجهك القصّة. تعرفين علاقتي بشعرك، أراه جميلاً دوماً. أحبّه لأنه مجنون مثلك. اتركيه حرّاً، هكذا قصيراً وحرّاً».

مشاهد عديدة لم أحكها له بعد. صمته علّمني الصمت. ليس سهلاً أن أعود إلى الكلام معه بعدما صُمت عنه. أحتاج إلى مرحلة

انتقالية، إلى قليل من المراقبة قبل أن أصف له الصور والألوان والوجوه وأكشف له عن المفاجآت، وأحكي القصص القصيرة والطويلة أيضاً. أوراق ربما لم يرَها. أخفيتها كي لا يسألني عنها. ليس الآن، لن أخبره الآن. خبّأتها في الدرج إلى جانب جهتي من سريرنا. والكلام الذي ظننته سيتدفّق منّي، هرب وتباطأ في خروجه. استمعت إليه. لم يقل بعد إنه يحاول الانسجام مع نفسه والآخرين في حياته البيروتية الجديدة ولا يستطيع. لم يقل بعد إن حركة السير تخنقه وإنه لا يستطيع فهم تصرّفات البعض أو تقبّلها من أجل العيش في سلام. «هنا لا نعيش في سلام» أقول له كلّ مرّة.

في رحلته إلى جسمي عرّج ربيع على القصص كلّها، قصص يعرفها وأخرى حكيتها له وأعدت حكايتها بروية وانتباه شديدين. فأنا أخاف دوماً ألا يعجبه ما أقوله. مرّ على الجرح البني القديم وعلى خريطة صغيرة رسمتها ألعاب الطفولة على كتفي. مرّ على الشامة وسط ظهري والتي يحاول دوماً أن يصفها لي قبل أن يقبّلها. كأنه يطمئن عن وجودها، إلى أنها ما زالت هناك مكانها. يعرف قصص جسمي كلّها ويتعاطف معها ويحبّها، ويفاجئني كلّ مرّة بقدرته على منح الحنان، والتواصل مع علامات فارقة في جسمي والتي يعدها بزيارات قريبة، لكنه يمكن أن يهجرها فجأة، أن ينتقم مني بالانتقام منها، أن يقسو عليها، فيقسو عليّ.

تعرّف إلى قصص جسمي كلّها وقصّ عليها شوقه إليها.

يطاردني من غرفة إلى أخرى. أريد أن أهتمّ به، أن أدلّله دوماً، أن أنسى العالم في الخارج، خارج يديه. لكن فضولي يمنعني من تأجيل اكتشاف ريما وأوراقها. يقول إنه أدمن جسمي وإن جزءاً من غضبه سببه بعدي عنه. «ابتعدتُ لأنك لا تسمع . منعتَ نفسك من أن تسمعني. منعتني أيضاً من الكلام ودوماً تعالج مواجهتي بالصمت».

صحا ربيع . صحوت. صفعنا الصباح، أفقنا من رومنسية الليل ونوبة الشوق. ابتعد ربيع عني، ورمى الجريدة من يده كأنه يخاف على نفسه منها. وربما يخاف عليّ أنا أيضاً منها. يرتدي ثيابه، وأنا في سريرنا أنتظر الانفراد بأوراق ريما. لكن ربيع قرر أن نمضي صباحنا معاً، ألا نقوم بأي إنجاز ولا نلتفت إلى أي واجب، أن نستسلم لعفوية قرار الخروج، وأن نطوف في الشوارع يداً بيد.

«تريدينني أن أواجه ما يمنعني من الاقتناع بحياتي هنا. فلنخرج. لنمش في الشوارع، وعلى الأرصفة. لنجتز الطرق معاً، والحواجز أيضاً».

أَنقذ أوراق ريما مني مرة أخرى. تبعته سعيدة بالصلح بيننا، خائفة من تغيّر مزاجه الذي لمسته مع ساعات الصباح الأولى. كما أنني منذ يومين لم أحمل الكاميرا وأدر في شوارع بيروت.

أضع القليل من البودرة كي أتقرّب من الشمس، كي أُلبس جلدي لونها. ألوّن نفسي وأخرج إليها، إلى الشمس. أمشي مع ربيع دون أن أطرح الأسئلة. علاقتي بربيع تنسجم مع شغفي بالقصص

وصورها. كثيراً ما ردّدت أن ذاكرتي ملوّنة بالصور وأن الكلمات وحدها لا تسعفني.

يبدأ ربيع لعبته المفضّلة، لعبة الأسئلة والفخاخ. ربيع مهووس بعلاقاتي السابقة. كلّما مشينا معاً في شارع بلا اسم أو شارع بأسماء كثيرة، يبتسم ابتسامته الهادئة الباردة التي تدفعني إلى الضحك وإلى أن أسأله كلّ مرة: «لماذا تنظر إليّ هكذا؟»... «ألهذا تحبّين بيروت؟ أخبريني مع مَن كنت تأتين إلى هنا؟ أحبّ أن أعرف. أحبّ أن أتخيّل المشاهد وربما أكتبها لاحقاً. كيف كان شكل وجهه؟ هل كان أسمر؟ هل كان أصلع أم كثيف الشعر؟ كان طويل القامة ونحيلاً، أليس كذلك؟».

تسلّيت بأسئلة ربيع خلال الأسابيع الأولى، ثم أبديت تعبي منها.

أقول لربيع «اكتب، مَن يمنعك من الكتابة؟ أستطيع أن أخبرك عن رجال لم أعرفهم قط كي تستريح وتكتب. أعطيتك قصصي كلّها، والأسماء كلّها». ابتكرت له قصصاً. «هل تستطيع تخيّل كميل مع ميساء في السرير؟ ألا تستغرب المشهد حين ترمي في السيارة رأسها على صدره؟» يضحك ربيع ويمنعني من أن أكمل. «أنت مريضة» يقول. وتقول نظرة في عينيه إنه سعيد، سعيد جداً بما يسمعه وإنه يتوق إلى المزيد من هذا الكلام. يحبّ ربيع أن نتمشى معاً من أجل أخبار كهذه. كثيراً ما فتحت نزهاتنا نفسه إلى هوسه بعلاقاتي السابقة. أسامح أسئلته التي يمزجها بلهجة مازحة، يغلّفها بالمزاح، لكنها تقطر قهراً ووجعاً وقلقاً أيضاً. تعلّمت أن أهمل هوسه مع ادّعاء الاهتمام به. لا تنفد قصصي. أستطيع أن أخبره بقصص نساء عائلتي

أمّي وأبي كلّهن. أن أدخله زقاقاً ومنه إلى زقاق آخر. في المدّة الأخيرة، قلّت أسئلة ربيع وتحوّلت. طال الصمت في نزهاتنا بين شارع وآخر، وأنا فقدت شهيّة اختراع الأجوبة وربطها بقصص حكتها لي أمّي منذ ولدت وحتّى تركتها وحدها في منزلها الجديد. اليوم ربيع يفتح صفحة جديدة بالعودة إلى طقوس نزهاتنا الأولى في بيروت، يمسك بيدي ثم يفلتها، يلصق كتفه بكتفي ثم يبتعد. ثم يقترب مجدّداً.

يقترب ربيع مني. نمشي معاً ونواجه احتمال الرعب الذي يملأ الشوارع. أما العنف، فقد وقع. عنف بأحجام مختلفة. عنف اجتماعي مرتبط بعلاقة الناس بعضهم ببعض. يبرز في حركة المرور المجنونة، في تصرّفات سائقي السيارات غير الحضارية. هذا النوع من العنف أبرز أسباب رغبة ربيع في العودة إلى مونتريال. هناك أيضاً العنف العادي البدائي غير المبتكر، عنف الأسلحة المخفية، العنف الغادر الغبي الظالم. «الكاميرا، أين الكاميرا؟» أسأل نفسي. وأهمس لنفسي أيضاً، وأحرص على ألا يسمعني ربيع: «ألهذا تركنا كلّ شيء في كندا وجئنا إلى بيروت؟ الكاميرا تبحث عن الحقائق الكثيرة، الحقائق المتشرّدة في الشوارع والتي تحتاج إلى تركيب. الكاميرا تلتقط أنواع الحقائق كلّها، الحقائق المتناقضة، المتضاربة، الحقائق الفجّة القاسية الجميلة الموجعة كمرايا مكسورة».

أين الكاميرا؟ تركتُها في نصّ ريما وخرجتُ. أمشي مع ربيع على صفحات ما سمّته ريما «سيناريو». أرى كلماتها مدوّنة على الأرصفة

وإسفلت الشوارع . لا يمسك ربيع بيدي. ولا نتكلّم. كثيراً ما أثرثر خلال نزهاتنا العشوائية، لكنني صامتة الآن. أخطّط لما يمكن أن يحدث في نصّ ريما. ماذا تريد ريما مني؟ أسأل نفسي مرّة جديدة. وماذا تريد ريما من نصّها؟

خلف الكاميرا تنبت مئات القصص. ولمَ أخاف من جفاف أفكاري؟ ولمَ أحتاج إلى ريما ونصّها؟ لديّ أولغا. أستطيع دوماً العودة إلى أولغا.

أحبّ السينما. لم أحلم خلال نومي بجائزة سينمائية، بتمثال ذهبي صغير. لكنني أحببت السينما منذ ولدتُ. ذاكرتي ملأى بالألوان وبصور متحرّكة وجامدة كبيرة وصغيرة ملوّنة ورمادية وبيضاء وسوداء. ومخيّلتي متأهّبة على الدوام لأن تتلوّن بلون مختلف. أحببت ربيع لأنه يشبه بطل فيلم فرنسي في مطلع الثمانينيات، خلال أعوام هروبي من المدرسة إلى السينما برغم حواجز الحرب الأولى الأهلية وأجوائها النارية.

ريما لا تشبهني تماماً. وربما لذلك أحببتها، مع أنني أحب نفسي وسعيدة بها ومعها. يؤلمني أحياناً ألاّ أستطيع خلال أقل من لحظة سريعة أن أظهر قلقي أمام ربيع ، أن أعجز عن أن تعكس تصرّفاتي ما أحسّ به. ربيع يعتمد عليّ في كلّ شيء، من اختيار قمصانه إلى اختيار الجملة الأخيرة التي يترجمها. ربيع يحبّني. أخاف عليه من حاجته إلى سلطتي. لكنه أقوى مني بدلاله وامتصاصه الحنان. يبتلع ربيع حناني، يأكله سريعاً دون أن يتمهّل في قضمه، يبتلعه ثم ينتظر

المزيد. أريده أن يقتنع بحياتنا في بيروت. فالانفجار الذي توقّعناه يحدث كلّ يوم. المهمّ أن نستطيع أن نتمشّى ونستمتع بالطقس برغم التلوّث.

ربيع صامت وأنا أفكر في ريما. أين هي ريما الآن؟ لن أتّصل بها قبل أن أنتهي من قراءة النصّ. ما سمّته ريما «سيناريو» لن أسمح لربيع بقراءته خوفاً من أن تثير مخيّلته. يحبّني ربيع، لكن فكرة امرأة غامضة، امرأة من ورق يمكن أن تغريه. وإذا قرأ النصّ وسألني عن شكل ريما، لن أصف له وجهها. ربما أسأله فجأة سؤالاً عن علاقاته السابقة كما يفعل بي دوماً.

في تلك اللحظة بالذات. وأنا مشغولة بالتخطيط لإخفاء ريما عنه، وإبعاده عن قصّتي معها برغم ولعه بالقصص، وقراري إبعاده عن الجزء الأخير من حياتي وإخراجه منه، سألني ربيع:

«ماذا حلّ بأولغا وهيام؟ هيام هذه غريبة، كأنها ظهرت من القرن الماضي. ألن تبدأي التصوير معها بعد كلّ ما أبدته من حماسة؟»

هززت برأسي موافقة. تلك غلطتي. أطلعته على كلّ شيء، لم أترك لنفسي قصصاً وقرارات. اعتاد أن يقرّر عني. أن يفكر عني أيضاً، أنا «عوّدته». أحبّ آراءه ونصائحه، ولا أشك لحظة في قدراته الفكرية وذكائه، لكنه يتدخّل في كلّ شيء دون أن يقدّر المساحة الشاسعة التي منحته إياها فيّ، في حياتي ومشاريعي المهنية وأيامي الآتية أيضاً.

«أريد العودة. لا أعرف لمَ تركت هاتفي في البيت. ربّما اتّصلت هيام. كما يجب أن أحدّد ما سأفعله في اليومين المقبلين. أستأتي معي؟».

أركض إلى نصّ ريما وأتخيّلها بطلة فيلم أحلم به. أين الكاميرا؟ أحتاج إليها في نزهتي القصيرة مع ربيع . أنا في بيروت الآن حيث كلّ مشهد من مشاهد الحياة في الشوارع يغريني بلقطات وقصص قصيرة جداً. قصص أتمنّى لو كنت موهوبة أكثر كي أجعلها تتعقّد ولا تنتهي. أتعب من التفكير. ما يهمّ هو أنني سعيدة بنزهتي مع ربيع . يحبّني ربيع . ويشجّعني بحبّ على بدء مشروع فيلم جديد. لكنني في مواجهة الأحداث الكبيرة الخطيرة المصيرية أفقد علاقتي الخاصة بالكاميرا. إذ ذاك يجب أن أحمي تلك العلاقة. أحبّ تصوير الحوادث العادية، أن ألحق بأشخاص عاديين خلال أيام عادية. هكذا أفسّر أيضاً أسباب تعلّقي بهيام التي قررت تصويرها ثم أجّلت المشروع . ما كان عليّ أن أعود إلى بيروت حيث الحوادث الكبيرة، دون أن تكون مهمّة، تقع كلّ يوم، تلتصق بالأيام ولا تنفلت منها.

تأجّل غضب ربيع الآن، لكن لن تطول أيام العسل بيننا. سيحارب نفسه مجدّداً. سيقول لي ما سبق أن قاله: «الأسئلة توجع . أسئلتي التي أطرحها على نفسي. ماذا بعد؟ ما الذي أفعله هنا؟ لن تتغيّر الحياة هنا. اقرأي بريبة ولا تصدّقي. صدّقيني أنا. المؤامرات تحاك في كلّ زاوية. المؤامرات تحاك في العالم كلّه، لكنها مقرفة هنا، غبية ومؤثرة في الوقت نفسه». سيخبرني عن الحقائب التي سبقت أصحابها إلى السفن والطائرات. «البلد هجره أبناؤه لأن الحقائب الأجنبية الصنع لم تعد تطيق العيش فيه. وأنت جئت بي إلى هنا. لا

أريد أن أتحرّك بين القلق ومواجهة الخوف من الموت. لا أريد أن أضطر إلى التحديق بالموت قبل أن يغلبني. ولا أريد أن أتوسّل إليه أن يتركني إلى لقاء آخر. هذا ما أخاف منه فعلاً. ليس الموت نفسه، الموت السريع المفاجئ أخفّ وطأة. أخاف من الموت البطيء، أن أجد نفسي ممدداً على الإسفلت جاحظ العينين محدّقاً برعب النهاية».

أنا كنت أسخر من خوفي الدائم من الموت، حين لم يكن الموت قريباً إلى هذا الحدّ، وقبل أن تجتاحني مشاعر الأمومة. عدت لا أسخر الآن. أخاف فحسب.

«أنا ابنة الصحافية التي ماتت فجأة. قتلتها خيبتها. وكنت ألومها على استسلامها لزوجين يتغنّيان بقدرتهما على الاستهلاك، على شراء كلّ ما يمكن شراؤه. وكانت تموت في كوابيسي، وحين أشتاق إليها. هل قتلتها كوابيسي من أجل أن تتحقّق؟ لا، لم تُقتل. ماتت لأنها امتلأت بالحياة، لأن الحياة فاضت فيها وخنقتها، ولأن أحلامها اتّسعت وامتدّت وابتعدت. خرجت أحلامها من ذراعيها إلى أصابعها، ومن أصابعها إلى هواء سامّ، إلى غيوم ترحل ولا تعود.

لماذا غابت أمّي حين قرّرت أن تترك زوجها الثاني وتطير إلى القاهرة؟ استسلمتْ لراحة وصولها إلى القرار. أفهمها لأنني أبحث الآن عن قرار مصيري. أفهم أن الراحة بعد تعب طويل تغري بالغياب. أمّي ماتت. أصبحت يتيمة وتحكّم بي جنون الاضطهاد.

تحكّمت بي «البارانويا». وبدأتُ رحلة الهروب. سكنتني فكرة الهروب على الدرّاجة النارية. أهرب من غياب احتمال اللجوء إلى أمّي، من اضطراري إلى البقاء مع أبي.

تبقى لي هيام برغم جنونها. تسلّيني خالتي هيام وتغريني دوماً بالكتابة عنها. وجهها وحده يوحي لي أن أرسمه. يشبه وجهها وجه أمّي، لكن هيام التي تغطّي رأسها بوشاح الحرير وترتدي بذلات بألوان غامقة، تبدو أرستقراطية جداً. وأمّي التي سكنها شغف بالأزياء وألوانها وأقمشتها اختارت منها ما يجذب الانتباه والحواس. أحبّت أمّي الأقمشة المترفة والأزياء. أحبّت في الحياة ألوانها. كانت تتزيّن بجواهر أثقل من وزنها، وتغريها فكرة أن يزيّن كتفي وكتفها الوشم نفسه، وردة حمراء ناعمة أو فراشة. كثيراً ما غرتُ من أنوثة أمّي، من رغبتها في ابتلاع الحياة برغم واقعيتها وتشاؤمها. لكنّها كانت مكافحة. مدلّلة وتحبّ أن تدلّل، إلاّ أنّها كانت مكافحة. وكانت تقلق دون أن يبدو عليها القلق. تقلق كثيراً. تقلق بجنون، وتدخّن قلقها علبتَي سجائر يومياً. قتلها قلقها وبقيت لي هيام التي أنقذت نفسها فجأة من حزنها على أمّي. فجأة عاد إليها نشاطها ورغبتها في الحياة. أقلعت عن القول إن موت أمّي «هدّها». أقلعت عن الكلام على الموت. صحت في داخلها غريزة البقاء وهبّت إلى غرز أظفارها في الحياة كي تبقى معلّقة بها. ثم جاءها عماد. خافت على حياتها حين بدأت تحسّ بأوجاع أمّي. صارعت الحزن لتصحو منه، لتطفو على سطحه وتتنفّس. حين أخبرها الطبيب أن صحّتها جيّدة وأن أوجاعها

عابرة، عادت إليها الحياة. رفست الموت وشتمته في داخلها. تغيّر شكل عينيها وعاد إليهما لونهما في لحظة واحدة. ما إن أنهى الطبيب جملته، حتّى عاد إليها نشاطها ورغبتها في الحياة. تحب أختها لكنها لن تلحق بها، ستبقى، ستمنح نفسها الوقت الباقي لها من هذه الدنيا. أقلعت عن لعن الموت وأقلعت عن الكلام عليه. ثم جاءها عماد، تأخّر في الوقوف إلى جانبها، لكنه جاء. وعماد يأتي على الدوام متأخّراً. عماد تأخّر عليها ٣٥ عاماً وهي لم تعد تهتمّ بالوقت. لن تندم على البارحة وتشتاق إليه، ولا تريد أن تتوق إلى الغد وتعدّ الأيام وتبحث بينها عن يوم حظّها. ما عادت تبحث عني أيضاً أو تنتظر الإجازات أو يوم الأحد لتراني. توقّفت عن التوسّل إليّ أن أمضي معها أشهراً وأياماً أو أن تحكي لي عن حلمها أن نعيش معاً. لم أفقدها. هربت منها ولم أفقدها. أستطيع دوماً أن أحرمها عماد. لكن قصّتهما تدخل البهجة إليّ وتعيد إلى خالتي هيام أناقتها وتجعلها تقدّر تعلّق أمي بالحياة وعلاقاتها برجال أحبّتهم موقّتاً في بعض الأحيان. لا يمكن أن تحبّ هيام شخصاً ثم تتوقّف عن حبّه. هيام تختار لحياتها أبطالاً لا يتغيّرون، يبقون أبطالاً، أبطالها. وأنا أريد أن أكون بطلة حياتي الوحيدة. أمّي حاولت أن تكون لها البطولة المطلقة في حياتي، لكنّها لم تنجح لأسباب عدة أبرزها اعتمادها على الآخرين وحبّها أن تكون محطّ الأنظار. وأنا في حياتي لا أريد حوارات كثيرة، أريد مونولوغات ومشاهد تظهرني وحدي، هكذا مثلما أنا سعيدة بوحدتي».

خفتُ من ريما هذه. وكيف سمّته سيناريو هذا الحوار الطويل مع نفسها؟ بطلة الأوراق تشبهها، والأمّ فيها كأنها أمّها التي أخبرتني قصصها في لقائنا الوحيد، والخالة تشبه هيام التي رأيتها في الصالون عند أولغا. هيام التي وصفتها ريما هي هيام نفسها التي ظننتني اكتشفتها ويبدو أنها هي التي اكتشفتني، وعماد خطيبها الذي تنوي أن تعرّفني إليه. الشكّ يغيظني، فكيف ظهرت لي ريما هذه؟ وكيف وجدتُ نفسي بين فتاة غامضة غريبة الأطوار وامرأة تريدني أن أقرأها كما يُقرأ كتاب مفتوح؟

غدرتني ريما في نصّها. غدرتني لأسباب عديدة. لم أستطع قراءة نصّها سريعاً. أحاول التركيز على قراءته مؤجلةً تحليل الأحداث وربطها بأحداث شغلت أيامي وما زالت تشغلها، بظهور هيام في حياتي وعلاقتي بها التي تتطوّر سريعاً. أعد نفسي بالعودة إلى نفسي لاحقاً. غدرتني ريما. لم تخبرني بموت أمّها خلال لقائنا. وربّما اخترعت في نصّها قصّة هذا الموت. نجحت ريما في انتزاع «شهقة» استنكار مني.

أراجع في رأسي ما قرأته في الأوراق عن الصبية التي تهرب من الواقع على درّاجة نارية، تهرب إلى لعبة الهواء الذي يطرد الواقع دقائق طويلة.

تسير الدرّاجة النارية فوق الصفحات التي أقرأها. أسمع صوت المحرّك وأتخيّل الهواء يتكسّر على وجه ريما الرقيق.

كتبت ريما عن ثلاث نساء تشابكت قصصهن، عن الأمّ والابنة

والخالة. اللعبة نفسها تحيّرني دوماً، لعبة الكتابة. هل تكتب ريما عن نفسها؟ لا بد أنها تكتب عن نفسها.

فهل تكون هيام في نص ريما هي فعلاً هيام بطلة مشروعي السينمائي المقبل؟ ريما كتبت عن هيام أخت أمّها. وريما كتبت عن أمّها التي لوّنتها بألوان مختلفة. خلف شفافية وجهها الشاحب، رسمت ريما لأمّها أقنعة ملوّنة بعدد الأيام التي عاشتها بعيدة عنها. تتغيّر أمّ ريما بين صفحة وأخرى من صفحات السيناريو.

تحكي ريما عن أمّها الصحافية السابقة كأنّها تحكي عن إحدى صديقاتها. يغيب الحنان حيث ترسم ريما أمّها بين الصفحات. تصفها كما ظهرت في الصور العائلية القديمة وصورهما الجديدة معاً. كأنها تتمنّى أن تشبهها أو تغار من جمالها الذي تجرؤ على وصفه بأنه رخيص. تلوّن وجهها بالأبيض الشاحب وترسم الحاجبين الدقيقين المرتفعين فوق عينين سوداوين تلمعان طوال الوقت.

تحار ريما في نصّها بين أن تكرّم جرأة أمّها وتمسّكها بحقوقها ورغباتها، وبين أن تحتقرها. فالأمّ تركت الأب القاسي وعائلته الثرية من أجل أن تعمل بحُرّية ومن أجل أن تكتب. لكنها تركت ابنتها أيضاً. تركتها طفلة واستسلمت في حرب الأب للحصول عليها. «أمّي غادرت دون أن تحمل معها حقيبة واسعة كما تفعل بطلات الأفلام، ودون أن تبكي أو تعانقني وتبكي. غادرت البيت كما تغادره حين تقصد مصفّف الشعر أو «السوبرماركت». وأنا لم أركض وراءها كما تفعل ابنة البطلة البائسة في الأفلام، ولم أبكِ أو أصرخ أو أفهم أو

أحاول أن أفهم. جلست بهدوء ما اعتاده مني أحد يوماً.

أريد أن أشفى من مرض الكلمات التي سُجنت طويلاً داخلها. أريد أن أبوح، أن أفهم قسوة أبي الذي لم يتوقّف عن حبّ أمّي لحظة واحدة. وعلّل فشل زواجه الأول بإقدامه على الارتباط بامرأة من غير طائفته. وكلّما اشتاق إليها، اعتبر أنه ارتكب جريمة في حقّ عمره وفي حقّ الطفلة التي أنجبتها، والتي هي أنا. بحث عن زوجة تشبه أمّي. بحث عن الشعر الأسود الكثيف نفسه، عن البشرة البيضاء نفسها، عن أصابع يديها. أراد أن يصحّح أخطاء الزواج الأول، كما قال لي دون أن يخجل مني أو يراعي صمتي المريب أو حساسيّتي المفرطة. اختار زوجته الجديدة ابنة الجوّ نفسه، كما قال لي أيضاً. «تفهم عليّ وأفهم عليها. لعلّني لن أحتاج أن أفهم عليها، المهم أن تفهم هي عليّ على الدوام».

حين زرت أمّي في فرنسا، كانت قد تعرّفت إلى الأستاذ الجامعي الأميركي الشاب الذي يعزف على البيانو ويغنّي لها. وقعت في غرامه. لم أعرف إلى الآن لمَ ما تزوجته وتركته لتتزوج من رجل أعمال جشع مثل أبي. هيام لم تعرف قصّة الشاب الأميركي ذاك. كانت أمّي تخجل من أن تفضح نفسها أمامها. كانت على الدوام تفاجئها خوفاً من أن تحكم عليها هيام بمعايير العائلة ونسائها الثرثارات، مع أنها كانت تعرف جيّداً أن هيام مختلفة عنهن. كانت أمّي تحترم هيام وتحاول في حضورها ألا تدخّن علبة السجائر كلّها. هيام بالنسبة إليها كانت رمز الطهارة والعفّة. وأنا في عينيها طفلة، طفلة أبدية».

«حبيبتي، هل يمكن أن تعدّي الغداء استثنائياً اليوم؟ أرغب في أن أتناول طعاماً أعدته يداك الجميلتان. أريد أن نجلس إلى طاولة الطعام، نأكل ونتحدث كما في الأيام الماضية، وأن نكتشف أننا تأخّرنا عن مواعيدنا ومشاريعنا لأننا استمتعنا بالجلوس معاً».

يريدني ربيع أن أقول له أحبّك كلّ لحظة وأن أثبت له كلّما تنفّست أنه حبيبي. عدت غير قادرة على المراوغة هكذا، على إثبات ما لا ينبغي أن أثبته. والآن أنا مشغولة بأوراق ريما، وأرغب فعلاً في أن أفهم ما تريده ريما مني وما تريد هي أن تصل إليه.

هيام التي كتبت عنها ريما تشبه هيام التي التقيتُها في الصالون لدى أولغا ثم زرتها في بعلبك ووعدتها بعدما وعدت نفسي بأن يكون فيلمي الجديد عنها. جرأة هيام أمدّتني بالأمل. وربيع شجّعني على البدء بمشروع فيلم عنها. لقائي وهيام غيّر سير الأمور. أجّل انفجار علاقتي بربيع الذي كان قد هدّدني بالرحيل. بعد لقائي هيام منذ نحو شهر، تنفّست. حين وجدتها، عادت إليّ ما سمّاها ربيع «طاقتي الإيجابية». امرأة في منتصف الخمسين تستعدّ للزواج من الرجل الذي أحبّته منذ كانت في الخامسة عشرة.

لا تخجل هيام من الاعتراف بغرامها، والبوح بما فكرت فيه وخططت له كي تحصل على عماد. ولا تخجل أيضاً من شرح مرارتها المدفونة تحت غطاء رأسها الأنيق حين رأته يتنقّل من حضن امرأة إلى حضن أخرى. لكن هيام لم تعرف اليأس. وهيام لم تتزوج.

انتظرته. حتّى الحروب الكثيرة لم تغيّرها. تعلّقت بقصّتها معه كأنّها تتعلّق بالحياة. تذرّعت بها وأقنعت نفسها بأن قصّتها تميّزها من نساء الحيّ كلّهن، ونساء العائلة أيضاً ونساء المدينة كلّهن. ولم تتوقف يوماً عن الاهتمام بمظهرها، بوجهها وأزيائها وشعرها الذي تغطيه تحت أوشحة شفّافة سود.

قالت إن قصّتها أجمل ما عاشته وإن صبرها يُكتب قصصاً.

انتبهتُ إلى أنني رأيت في عينَي هيام ما رأيته في عينَي ريما وما يربطني بالكاميرا ويجعلني أحتاج إليها وأتسلّح بها. الشغف.

لم أخبر ربيع أيّ شيء بعد عن اكتشافاتي وعن ريما وعلاقتها بهيام. وأنا مستغربة شهيّته إلى الكلام وسعيدة بها. لكنّني لست مع ربيع كلّياً. فكرت في أن ريما ربما طاردتني إلى بعلبك والتقت هيام ثم كتبت سريعاً عنها قبل أن يتسنّى لي أن أفكر في المشاهد التي قد أفتتح بها فيلمي.

وأنا منذ أكثر من حرب في لبنان أحاول أن أبحث عن موضوعات عادية، عن وجوه سعيدة غير متفاجئة أو مصدومة، عن قصّة حبّ عادية أو قصّة طفل أريده وأنتظره.

كيف تعرّفت ريما إلى هيام؟ هل أتت هيام إليها بعدما رأت عينيها تلمعان وأخبرتها قصّة انتظارها عماد طوال هذه السنوات؟ هل أعرف، إذا أكملتُ قراءة ريما، إذا كانت هيام في نصّ ريما أيضاً تتأهّب للزواج من عماد، لأن تكون زوجته الثالثة بعد ٣٧ عاماً من

الحبّ وأكثر من خمس نساء مررن في حياته أمام عينيها وقلبها وعقلها. في السطر الأخير الذي قرأته قبل أن أنضمّ إلى ربيع، تعود ريما إلى الدرّاجة. وتستسلم للهواء والإسفلت. تغمض عينيها ولا ترى الموت. لا تعرف وجهتها، لكنها سعيدة بخفقات قلبها السريعة وبانتظار المفاجأة تلو الأخرى. ولا تتعب بل تتوق إلى المزيد. هكذا هي ريما نهمة وغامضة.

قبل أن أتّصل بهيام اتّصلت بي. وكنت قد أعطيتُها رقم هاتفي كي تحسّ بأنني قريبة منها وبأننا صديقتان قبل أن أبدأ التصوير. وكنت أنوي أن أمضي في بيتها أياماً قبل أن أطرح عليها أسئلتي. أردت أيضاً أن نزور الأرض الجرداء ولا نلومها، وأن تُفهمني كيف تُبنى حياة كاملة على قصّة حبّ واحدة. ربّما هي الأرض البقاعية الجرداء حول بعلبك الفظّة المغوية والحالمة والشرسة والقاسية دون دلال، والتي لا تنسى ولا تسمح بموت حبّ مثل حب هيام.

«أريد أن أطمئن عنك فقط».

تريدني أن أسألها عن عماد. إلا أنني لا أسألها عنه أو عن استعدادها للزواج. وأنتبه إلى ألا أطرح عليها أيّاً من أسئلتي التي سيدور حولها الفيلم. كيف لا يموت الحبّ خلال سبعة وثلاثين عاماً؟ وكيف لم يتوقّف حبّ هيام لعماد الذي سبق أن تزوّج مرتين؟ أستنتهي «أسطورة» عماد في قلبها بعد أن تصبح واقعاً وبعد أن تعيش هيام معه، كما تقول «ما تبقّى من عمرها»؟ تكلّمنا على بيروت وبعلبك والطقس

والبرامج التلفزيونية ونشرات الأخبار. وبرغم فضولي وحماستي لسؤالها عن ريما وهل كانت تعرفها، فلا أسألها عنها. كمن يؤجل مشروعاً كثيراً ما حلم بتنفيذه خوفاً من أن يفشل وحرصاً على أن يبدع فيه وينجزه ببراعة. أخبرتُ هيام أنني أستعدّ للبدء بـ«فيلمنا». وسألتها هل أنت مستعدة لاستقبالي مع الكاميرا. أَفرَحَ هيام أن تكون جزءاً من فريق، وعبّرت لي عن حاجتها إلى البوح وعن تقديرها للفن والصورة. كان جميلاً كلامها على رغبتها في أن تحكي حياتها، وفي أن تعرف أنها شاركت في فيلم. وكانت أجمل فرحتها بأن تصوّر الكاميرا كلامها على قصّة حبّها التي هي قصّة حياتها. وربّما ما لم تقله هيام لي هو أنها بعد يقظتها من موت أختها اعتادت المغامرات المجنونة، وأصبحت تهتمّ بالتعبير عمّا تحسّ به وبالعودة إلى ما أرادت أن تكون لا إلى ما أصبحت عليه. هيام حسب رواية ريما، بقيت في بعلبك لأنّها صادقة مع نفسها، ولأنّ قلبها كان حرّكها وواجب البقاء من أجل خدمة والدها قبل وفاته. لكن كيف تعرف هيام ما تعرفه عن السينما؟ ظننتها في حياتها «البعلبكية» لا تتعاطى مع الشاشات الكبيرة، وظننت أن الأرض الجرداء صديقتها ومعها المباني النابتة بقبح على حدودها. تعرف هيام عن السينما ما يدهشني. تحبّ أفلام هوليوود الكلاسيكية ونجومها الراحلين والجدد. ربما أبقى حبّها للسينما حبّها لعماد حيّاً خلال هذه الأعوام كلّها. «أردت أن تستحقّ حياتي أن يعرضها فيلم، كأنني عرفت أنك ستختارينني». لم أقل شيئاً. صمتٌّ. وهي ودّعتني. ودّعتها وأقفلت الخطّ.

تحترمني هيام إلى حدّ يخيفني. يخيّل إليّ أن نساء عديدات سكنّها، عشن فيها وعاشت من أجلهن. ليست هيام ممثلة لكنّها حلمت بالتمثيل في أفلام لفيليني. ولدت في بعلبك، لكنّها قرأت عن فيليني وشاهدت أفلامه وأحبّت ابن خالة أمّها الذي لم يتزوّجها، حبّاً سينمائياً. دخلتُ غرفة هيام في نصّ ريما. «في غرفتها صفّت هيام زجاجات العطور البنية المحجّرة في خط طويل على طاولة صغيرة. أدخل غرفتها متى شئت. أفتح الباب ببطء وأدخل. غرفتها مفتوحة في مكان ما في ذاكرتي. أمّي هناك، تجلس على حافة السرير، وتمد رجليها إلى الأريكة. أمّي هناك في الصور أيضاً، أمّي دوماً هناك. منذ كنت طفلة تدخلني هيام عالمها، ولم تمنعني مرة واحدة من دخوله.

خالتي هيام تعيش وحدها مع صور أقربائها، مع صور أطفال لم ترهم في حياتها. رائحة البيت توحي وحدتها، رائحة عطر قديم تمتزج برائحة السجاجيد في الغرف المغلقة». غبت قليلاً عن أوراق ريما، عدت إلى يوم زرت هيام في شقّتها في بعلبك، شقّة واسعة أنيقة برغم قدم أثاثها وكلاسيكيته.

«بيتك واسع» قلت لها. هذا ما طلع مني، هذا ما عرفت أن أقوله. لكنّها تفهم عليّ، تفيض كلاماً، تعود إلى البدايات، تجيب عن أسئلة لم أعرف أن أطرحها. تحكي هيام، تبوح. تعوّض عن صمتها الطويل، صمت وحدتها. «اشتراه أخي قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة. اعتدت أن أعيش فيه وحدي. كبرتُ وحدي، كبرتُ في سنّ مبكرة. نضجت قبل السادسة عشرة حين رفضت الزواج من ابن

عمّة أبي الذي يكبرني بسبعة عشر عاماً. عدا أنه لم يكن وسيماً. لم أقبل بالزواج في السادسة عشرة ولا في العشرين. عرفت أنني لن أتزوّج أبداً إذا ظلّ عماد يتبع عطر هذه ويقبّل شعر تلك. لا أتذكّر متى أحببته. لا أتذكّر شيئاً من طفولتي. حياتي بدأت في الثالثة عشرة حين نظر عماد إلى جسمي للمرة الأولى تلك النظرة المختلفة. كأنه اكتشفني، كأنه انتبه إليّ فجأة. في نظرته تلك التي ما زلت أعود إليها منذ ٣٩ عاماً، ابتسامة ممزوجة بالرغبة والحنان. كنت أشعر بالخجل حين أستعيد مشهد النظرة ذاك. لم يعد الآن يخجلني.

وحين استطعت رؤية نفسي في المرآة كان الزمن قد تأخّر. لكنني كنت أحلم دوماً بأنني بطلة فيلم سينمائي وبوجه عماد. عشت من أجل غيري، ولم أندم على ذلك بل أسعدني هذا الأمر، لكنني أحياناً أعترف بأن إهمالي حياتي غباوة أسمّيها أسماء كثيرة».

في إحدى صورها القديمة المعلّقة على المرآة في غرفتها، ارتدت هيام فستاناً أسود مفتوحاً عند الصدر يشبه فساتين ممثلات هوليوود أو السينما المصرية في خمسينيات القرن العشرين. وفي الصورة، لم تضع هيام الغطاء الشفّاف على شعرها، بل غطّته بقبعة سوداء أنيقة لا متساوية يخفي طرفها عينها اليمنى في حين تحدّق عينها اليسرى بالكاميرا. وشفتا هيام في الصورة البيضاء والسوداء ملوّنتان كشفتَي فتاة صغيرة صبغتهما بالأحمر خلسة. وقد ركّزت قبضتها على ذقنها كأنها تسند رأسها كلّه بأصابعها الملتصقة بباطن كفّها. في الصورة أيضاً، أسندت هيام ظهرها إلى حائط عار من الصور، حائط

عاجيّ في الصورة البيضاء والسوداء. أفحص صورة هيام كأنني أتفرّج على فيلم بوليسي ورومنسي في الوقت نفسه. هيام في تلك الصورة صبية تحاول أن تسبق الزمن. تريد أن تبدو أكبر من سنّها. لا تبتسم ولا تبدو حاملة همّ الدنيا. ولا تبدو خائفة بل منتظرة خوفاً ما. تبدو صارمة في الوضعية التي اتخذتها قبالة الكاميرا. كأنّها استعارت من ممثلة سينمائية أزياءها فقط من أجل الكاميرا، ومن أجل تكريم حبّها للسينما وبطلاتها. هيام أخبرتني عن افتتانها بأنغريد برغمان وبأناقة مارلين ديتريش الرجولية وقدرة عينيها الهائلة على الإغواء وجاذبيتهما.

تعيش هيام مع نفسها متأخّرة عن زمنها. تعيش في ماض اختارته جميلاً جمال الصور التي نضعها في أطر ونعرضها لأننا نحبّ أنفسنا فيها، أو نحبّ ذلك الانعكاس لنا فيها، نحبّ الصورة التي هي إحدى صورنا الكثيرة، في تلك اللحظة التي لن تتكرّر.

هيام المفتونة أيضاً بالتطوّر التكنولوجي، والتي تستخدم الكومبيوتر والإنترنت منذ عام ١٩٩٩ حين لم تكن أي من جاراتها قد رأت جهاز كومبيوتر بعد، تختار من الماضي صوراً تعيش معها وتعيش داخلها كذلك.

تأمّلتُ صور هيام. حاولت أن أحفظ ما فيها. تأمّلت الأزياء وحركات الوجوه التي جُمّدت بعصا سحرية هي الكاميرا، عصا أخطأت حين ظننتها تتحدّى الزمن أو تتحدّاه في عقول غير المعنيين بأبطال الصورة فقط. حين لا توجع مشاعر الشوق أو

الرغبة في لمس الجسم المتحوّل خطوطاً والوجه الذي أصبح رسماً متقناً.

«أحبّ الغموض الجميل الذي أحاط بنجمات السينما في الخمسينيات والستينيات، أعشق أناقتهن الدائمة بعيداً عن الحاجة إلى معرفة تفاصيل من واقعهن، من أخبار طلاق إحداهن أو زواجها، أو التعليق على مظهرها في ثياب النوم».

الهروب من الواقع أو على الأقل إهماله، هذا ما تقدّره هيام. وأنا أسأل نفسي عن قدرة هذه المرأة على أن تجمع صفات متناقضة، أو أن تعيش في الماضي والحاضر في الوقت نفسه، حتّى في مظهرها، في أزيائها الأنيقة وغطاء رأسها الذي يبدو كأنه طار إليها من زمن آخر ثم التصق بشعرها الأسود الكثيف.

سيكون الكحل جميلاً في عينَي هيام. أتخيّل عينيها رائعتين إنْ ألبستهما الكحل. لكن حزنها يمنعها من محاولة أن تبدو أجمل، حزن قديم موروث ورثته من نساء العائلة الحزينات، حزن تعلّمت ممارسته ولا علاقة له بالحزن الذي ينبت داخلها وينمو، وهو حزن جميل أحياناً لا تعرف أن تعيش من دونه. حتّى في صورها القديمة تلفّ هيام نفسها بالأسود.

لا تخون هيام اللون الأسود. لا تستطيع أن تخونه. «ابنة خالتي التي تكبرني بنحو عشرين عاماً ما زالت تلبس الأسود حداداً على مقتل زوجها الشاب قبل أربعين عاماً. تركها مع شبابها وأيام طويلة لا تنتهي وثلاثة أطفال. وما زالت تبكي على شبابه الذي لم يعشه مع

أنها، بحسب قولها لي، اكتشفت مبكراً أن «الحياة مثل الماء تجري بين أيدينا ولا نستطيع التقاطها». وقد استطاعت أن تربّي وحدها أولادها الذين أنهوا دراساتهم الجامعية متفوّقين. ابنة خالتي هذه هي أقرب نساء العائلة إلى قلبي مع أن دمها ليس خفيفاً خصوصاً حين تسعى إلى أن تجمع كلماتها في ما تسميه حكمة أو فلسفة. وحين تحكي تفاصيل أحد مناماتها، تصف الألوان والأصوات، تحكي الحلم خلال ٤٥ دقيقة متواصلة. تفصّل الأسماء، ومن الاسم الواحد تنطلق إلى سرد تاريخ العائلة. تبكي على الأموات وتحكي عن الأحفاد وخفّة دمهم وذكائهم. تصرخ، تندب، تضحك، تبكي، تقدّم منفردة عرضاً مسرحياً. وربّما انضمّت إليها أخريات، خصوصاً في مشهد العويل والبكاء حين يقتحم الجلسة الأموات من جدّ الجدّ إلى آخر الراحلين. هكذا تصبح الفرجة طقساً مملاً من طقوس حياة النساء في عائلة هيام وفي حياتها».

أخبار هيام تحمل لي أسئلة كثيرة، أدوّنها وأفضّل تأجيلها إلى حين نبدأ التصوير. لكنني لا أستطيع أحياناً أن أمنع خروج الأسئلة مني، فأقول لها «ستعيدين حكاية ما قلته الآن قبالة الكاميرا تماماً كما قلته».

زيارتي بيت هيام تلك كشفت لي متعة الاستماع إلى كلامها. لطالما ظننتني أفضّل أن أتكلّم على أن أستمع، هذا ما أفعله دوماً مع ربيع. هكذا بنينا علاقتنا. أنا أتكلّم وهو يستمع. يستطيع أن يستمع إليّ ليلة كاملة. وهو لا يحبّ الكلام، لم يعوّدني الاستماع إليه، لا يحكي لي الحكاية، لا يصف. يغيظني حين يفشل في نقل التفاصيل،

كأنه لا يعرف أن يصف لي سترة أعجبته أو سجادة لغرفة الجلوس.

هيام تحبّ الأسود، هذا ما ركّزت على أن تنقله إليّ. «أحبّ الأسود، أحبّ أيضاً أن أحزن. فأنا أعرف الحزن جيّداً. تعلّمته من نساء العائلة منذ صغري قبل أن يجتاحني بقسوة ويغيّر حياتي. منذ كنت في العاشرة ألبس الأسود حداداً. وفي السادسة عشرة حين وجدت نفسي يتيمة ومسؤولة عن بيت أهلي، اختبأت في الأسود، وفي غطاء نصحتني لاحقاً النساء في عائلتي صاحبات الآراء العصرية بأن أختاره ملوّناً، لكنني لم أخن الأسود ولم أحسّ بصباي أو أعشه. الآن في الثانية والخمسين أحسّ بأنني صبية أو مراهقة وبأنني طفلة أحياناً».

بعد زيارتي هيام وعدت نفسي بأن تكون لقاءاتي بها كثيرة. وكنت قد ذكّرت نفسي بضرورة أن أسجّل ما تقوله بعد أن استأذنها طبعاً. ثم نسيت. ما إن بدأت الكلام حتّى نسيت. أردتُ أن أقترب منها قبل أن أبدأ التصوير وتسجيل كلامها بجهاز التسجيل الرقمي الذي أعجب هيام. فأخذته مني بعدما انبهرت به وقرأت ما كُتب عليه من حروف وقالت إنها ستشتري مثله. ثم عرفت أنني لا أحتاج إلى أن أبني علاقة صداقة بيننا كي أنتزع منها كلاماً جميلاً أو حميماً. فهيام قادرة على البوح في أيّة لحظة، لأنّها تريد أن تبوح، أن تخرج ما في صدرها وعقلها وبطنها، أن تخرج نفسها من نفسها. ولم أكن أنوي ادّعاء صداقتي لها أو تركيب هذه الصداقة من أجل الفيلم. أحببتُ هيام.

ولأنني أحببتها منذ جملتها الأولى، أردت أن أصنع فيلماً عنها. وهيام مهدت للقائي وريما دون أن تدري ودون أن أدري أنا.

وعدت هيام بزيارة ثانية. أحب أن أزورها مرّة ثانية، أن أكتشف المنزل زاوية زاوية وأريكة أريكة وصورة صورة، أن أختبئ في غرفة نومها، في الخزانة الكبيرة التي ترتفع على طول الجدار. حين فتحتها خرجت منها أسرارٌ حاولت أن أسترق النظر إليها بخجل وخوف من أن تنتبه إلى فضولي. في أسفل الخزانة، في أرضها، صورة كبيرة بالأبيض والأسود. لم أجرؤ على أن أسألها عنها. لكن وجودها هناك في أرض الخزانة، وغير معلّقة على أحد جدران البيت مثل غيرها من الصور، جعلني أظنّها لعماد. أحبّ أن يشبه عماد صورته التي تخيّلتها. لا أستطيع أن أتخيّله أصلع على سبيل المثال أو سميناً. لا أدري لمَ أراه نحيلاً، وأرى عينيه خضراوين وعلى شفتَيه ابتسامة هازئة على الدوام.

أنا أيضاً أحبّ الصور. أحتفظ بصور قديمة لجدّتي وأخواتها، وصور بالأبيض والأسود ورثتها من عمّتي. وكنت قد لوّنت بعضها وأضفيت عليه لمساتي الطفولية، «روتوش»، كنت أقول لأمّي، كأن أضيف الكحل على العينين وأضاعف مساحة الشفة العلوية. وألوّن في الأنف قطعاً زائدة.

دخل ربيع فجأة. أوراق ريما حولي وهاتفي لم يشفَ من صوت هيام بعد. لم أقل له إنها اتّصلت. لا أعرف لمَ عدت لا أريد أن أطلعه

على تطوّرات علاقتي بهيام. ربما حين أبدأ تصوير الفيلم، تعود إليّ حماستي لمشاركته في اكتشافاتي. ثمة ما تغيّر بيني وبين ربيع. أدرك ذلك مع أنني لا أريد أن أفكر في الأمر. لكنني أصبحت أخاف غدره. لم أتوقّع أن يغضب مني وأن يقوى على مقاطعتي كما فعل. صعقني اختباري الأوّل لقسوته وعناده.

«أريد أن أوضب أغراضي، سليم أعطاني مفتاح الشاليه في الجبل. فلنذهب. نحتاج إلى الهدوء، تركزين على أفكارك هناك. نستطيع أن نبقى أشهراً هناك، فسليم في قطر الآن. ننقل أغراضنا على مهل. ما رأيك؟».

«لن أهرب. أنت مصرّ على الهروب. لمَ لا نعيش مثل الناس كلّهم. نستقرّ في مكان واحد. نعود إليه من العمل للراحة والقراءة وكلّ الأشياء التي تقول إنها تمثّل السعادة بالنسبة إليك. وما الذي يتغيّر في الشاليه في الجبل؟ ظننت علاقتنا أقوى ممّا هي عليه. ومزاجي لا يسمح لي بالمهادنة. أنا أيضاً تعبة وأريد أن أوفر عليك اختيار جمل تجرحني بنعومة وذكاء».

«ربيع ما رأيكَ فيّ؟» صرخت به وأنا لا أنتظر جوابه. لم أفهم سؤالي، لكنني سألته ربما كي أوهمه أنني أعيد النظر في أسس علاقتنا قبل أن يفاجئني هو بخطوة مثل هذه. سألته وأجبت أنا.

يوم سألته هذا السؤال قبل زواجنا قال إنه يحبّني، وكتب بوردة حكاية أيامي التي تغيّرت. وأكثر ما أحببته في وجوده هو أنني في وجوده أستطيع أن أتمدد على أريكة سحرية وأحكي لنفسي حكاياتها.

خفت من أن أقول له إنني تعبت من خوفي من رحيله. لن أقول له «ارحل إنْ كنت تريد الرحيل». فلسنا شخصيتين في فيلم. أنا وربيع حقيقيان، هذا على الأقل ما أتمنّاه. أحبّ ربيع. أحبّه وهو ينظر إليّ هكذا بحنان ممزوج بقليل من الكره وكثير من الحب. حيال دهشته أكملت دون أن أفهم ما أقوله. لم يكن لكلامي أيّ معنى. أنا أيضاً أريد البوح لا أن أكتفي بتسجيل بوح أولغا وهيام وريما. أسجّل كلامهن فيّ، في أعصابي ومن خلال الكاميرا كذلك. لم أسمح له بالردّ. لم يقل شيئاً، أنا قلت له:

«أنا مثلك كنت إنساناً آخر. كنت امرأة أخرى. أنا أيضاً أحسّ بعدم الاستقرار والخوف الدائمين، أنا أيضاً علاقتي قوية بالأمكنة التي أسكنها وتسكنني. أنا أيضاً أمكنتي على وشك الانفجار. وليست انفجاراتها الوشيكة سينمائية أو رمزية بل انفجارات حقيقية وعواصف نارية تمطر حجارة وحديداً ودموعاً وموتاً وألواناً حمراً.

ومع أنني في بيروت، أريد من كلّ قلبي أن أعود إلى بيروت التي عرفتها. أريد أن تغادرني مونتريال كي أتعلّم العيش هنا في هذا المكان، في صوره الجديدة. أصبحت أعرفها جيّداً صور الرماد والإسفلت والحجارة، صور المشهد الرمادي الطويل. وعدت لا أخاف من حروب مفاجئة، حروب تصحو فجأة من نومها، تخرج من مخابئها من تحت الأرض وفوقها وتصحو من نوبة جنون ثم تنام مغمضة عيناً واحدة فقط، تنطفئ موقّتاً تاركةً خاتم زواج ذهبياً يطلّ من وسط الرماد أو غلاف كتاب عن تاريخ الفن متهرّئ تحت أكوام

الحجارة أو صورة لعروسين يبتسمان قبل الموت بقليل».

«كفى. لست محور العالم. ولا أحد يفكر فيك. ليس علينا أن نبحث دوماً عن مواقف تراجيدية لتسجيلها. أنا مَن يقول لك هذا. أنا مَن يريد حياة طبيعية، لكن ليس هنا حيث يجب أن نخطط في كلّ لحظة سيناريوهات الاختباء من الموت. ولمَ تهرب مني الحياة البسيطة كلّما لهثت باحثاً عنها؟ أطلب منك أن نجرّبها الآن، خلال أشهر قليلة فقط. نبقى في لبنان كما تريدين، لكن في بيت سليم».

لم أردّ. وحين فتحت عينَي لم أرَه. نمت. غبت في نوم طويل. وحين صحوت لم أجد ربيع في البيت. بحثت عن رسالة صغيرة منه، عن دليل مادي على غضبه، عن وسادة مرمية في الأرض أو قميص معصور ومدوّر ككرة، ملقى على الأريكة، أو أدراج مفتوحة تطلّ منها أوراق بيض. لا شيء، الهدوء فقط. قدّرت أنه سيعود إلى لعبة الصمت. لم أجد ربيع. وجدت ريما في أوراقها.

أنا أيضاً أريد درّاجة نارية، أتحدّى فوقها الهواء. أنا أيضاً مثل ريما في نصّها «أريد أن أقترب من القرار المصيري الذي لا رجوع عنه، أن أمسكه بيدي. أن أمسك القرار بيدي، أن أحضنه وأشدّ عليه وألصقه بي. أريد أن أجده أوّلاً، فقط أن أجده. كيف تسعفني الكلمات؟ كيف تسمح الكلمات لغضبي بأن يسيل؟ ثم أحسّ بأن غضبي أصبح سائلاً. أصبح الحبر الذي أكتب به أو الرصاص الذي يتحوّل كلمات. أحس بأنني أحتاج إلى قرار مصيري، وإلى أخبار لا

تخبر شيئاً، إلى سكون عميق أو موت. أطوي نفسي في صفحة كتاب. أطوي نفسي بين ملاءة وملاءة».

ثم أنهض. أترك ريما في أوراقها وأنهض لأردّ على الهاتف.

«لا تنتظريني. أصبحت في الجبل، في بيت سليم. اشتقت إليك. إذا غيّرت رأيك، الحقي بي». أغمضت عينيّ لأركز على صوته قبل أن يغيب ثم تركته.

غادرني صوت ربيع في يوم جديد من أيام خلافاتنا الجديدة. تركت الشمس في الخارج وأغمضت عينَيّ لعلّ عتمتي الداخلية تدلّني على فكرة ما. ربما أستطيع تنظيم الأمور في رأسي وعيناي مغمضتان.

أغمضت عينَيّ في صالون «ميراج» أيضاً. وحين فتحتهما انتبهت إلى أن ألوان الجدران تغيرّت. ثم تذكّرت أنني في المرّة الماضية انتبهت إلى هذا التغيير. سعدت مجدّداً باللون الوردي وبرائحة الشمع والرذاذ وملطّف الشعر والعطور النسائية الممزوجة برائحة القهوة وبأصوات أحجار السبحات النسائية الملوّنة حين يرتطم بعضها ببعض. سلّمت على أولغا. قبّلتها. أشتاق إلى أولغا وأسعى دوماً إلى الاطمئنان عنها. أنتظر منها في كلّ زيارة أن تفاجئني بقرارها المصيري، بأنها تركت زوجها أو قررت العودة إلى بلدها أو رفضت التخلُّص من الجنين بعدما سبق أن أرغمها نسيم على ذلك. أحياناً حين أدخل الصالون ولا أجدها، وتكون في الحمام أو المطبخ، أفكر سريعاً في أنها ربّما حملت ابنتها وطفلاً في بطنها وعادت إلى بلدها، بعيداً عن مدى حيرتها التي تكبر معها.

في الصالون فتحتُ عينَيّ جيّداً. أردت أن أتفرّج.

العرّافة في الصالون الآن. كانت أولغا قد أخبرتني أنها آتية. عرّافة روسية مودرن وتحبّ القراءة. تزور الصالون مرتين في الأسبوع. والعرّافة تبدو فعلاً عرّافة بغموض وجهها وغرابة مظهرها. تلبس قميصاً أسود وتنورة ملوّنة غجرية. وهي سمينة جداً، وتلفّ حول عنقها عقداً عريضاً وتمسك بيد كتاباً والسندويش بيدها الثانية. بين زبونة وأخرى تعود إلى سندويشها. تقتحم أسنانها المساحة المخصصة في وجهها لشفتيها ولا تتوقّف عن القراءة أو ربّما تريد أن توحي أنها لا تستطيع التوقّف عن القراءة. ولا تتكلّم إلا مع زبوناتها. فجأة نظرت العرّافة إلى أولغا طويلاً ولم تتكلّم. انتظرت أولغا الجملة التي ظهرت في عينيها. لكن العرّافة لم تقل لها أيّ شيء.

تريد أولغا أن تنجب أختاً لابنتها بعدما اكتفت خلال خمسة عشر عاماً بأن تكون أمّاً لفتاة واحدة. «كيف يمكن الاكتفاء بإنجاب ابنة واحدة؟» تسألها النساء دوماً. وترفض أولغا الاجابة. تدّعي كلّ مرّة انهماكها بخصلة تهرّبها من باقة الخصل العالقة بين أصابعها. قالت زبونة عن أولغا مرّة: «لو كنت مكانها لقتلني الخوف من الوحدة، والخوف على ابنتي». ولم تعترف أولغا لها بأنها فكرت في الإنجاب، لكنّها خافت أن تفقد عملها برغم تعلّق صاحبة الصالون بها. تستاء أولغا ممن ما زالوا يعتبرونها غريبة وممن يتعجّبون من كلامها باللهجة اللبنانية ومن شهقات الذين يكتشفون تعلّقها بالأفلام المصرية القديمة. تعرف أولغا أنها ربما لن تعرف الاستقرار في بلدها

الأمّ أيضاً. وتحبّ بيروت، تحبّ أيضاً صاحبة الصالون، وتحتقر النظرات التي تحاربها بعلامات استفهام إنْ تكلّمت في شؤون السياسة اللبنانية وحقوق المواطن وواجباته.

وآخر النهار تجد نفسها منهوكة ومأكولة ومستهلكة.

في السابعة مساءً ترى الشارع رمادياً، «ربما كان رمادياً طوال الوقت»، قالت لي أولغا. لكنها بعد السابعة لا تنتبه إلى ألوانه. كأنني أعرف أولغا منذ ولدت. لا تسأم أسئلتي. وأنا أريد أن أعرف كلّ شيء عن عائلتها في أوكرانيا، عن لون عينَيّ أمّها، وعن سرّ غياب التجاعيد عن وجهها، وشعرها اللمّاع دوماً، وسرّ حزنها المتواصل حتّى حين تخبرني عن تفوّق ابنتها الوحيدة في المدرسة. حزن أولغا أيضاً قديم مثل حزن هيام، وربما ورثته من أمّها أو من إحدى خالاتها اللواتي أخبرتني بعض قصصهن. لم تترك أولغا زوجها إذاً. لن تتركه. لا أريد أن أقسو عليها وأقول لها إنني أظنّها لن تترك زوجها أبداً، وإنها لا تستطيع العيش دون الوجع الذي يسببه لها. وددت أن أسألها: «كيف تعرفين أنك ما زلت تحبينه؟». لكنني لم أفعل. ما عدت أسألها أيضاً هل كانت تريد المشاركة في أحد مشاريع أفلامي.

في الإمارات حيث أمضت أقلّ من عام، لم ترَ أولغا الصحراء. هيام تعرف الصحراء. تعرف الأرض الجرداء حول بعلبك والممتدة من مدينة الشمس إلى ما بعد حدود لبنان الصغير. «لبنان الكبير» سمّوه، قال ربيع مرّة وهو يضحك. في أوكرانيا حيث ولدت أولغا قبل أربعين عاماً يعيش نحو ٤٨ مليون شخص. كم لبنان تساوي

أوكرانيا المنفصلة عن الاتّحاد السوفياتي السابق؟ الحبّ تقول أولغا أتى بها إلى لبنان. الحبّ قبل الفقر ومحاولات الخروج منه، محاولات أن تطفو على سطح الحياة. لكن هناك في أوكرانيا كانت أولغا تقرأ وتزور المتاحف وتتابع العروض المسرحية وعروض فرق الباليه، وما كانت تقدّر تعلّقها باللون الأخضر الذي تشتاق إليه في لبنان الأخضر. وفي دبي، تحمّست أولغا للقاء الصحراء. تاقت إلى التعرّف إليها، لكنّها لم تجدها. نبت في وجهها دوماً جدار أو سجادة خضراء وورود تدلّ كلّ لحظة على أنها مهددة بالموت السريع، الموت البطيء أيضاً. كي ترى أولغا الصحراء في دبي كان عليها أن تقصد رؤيتها، أن تخطط للاستسلام لها في يوم إجازة طويل. أحبّتها كأنّها ولدت على رمالها، كأنّها رأتها من قبل في منامها. مثل هيام ورثت أولغا الحزن من نساء عائلتها، من أمّها التي تركتها في أوكرانيا وما تزال تحتاج إلى العمل. تعيش أمّها مع خالتها التي فقدت ابنها في حرب العصابات. قتلته عصا مجهولة تحملها يد مجهولة وتحرّكها ذراع مجهولة تحت وجه مجهول مغطّى بقماش أسود. «في أوكرانيا كنا نبيع الخبز إلى أن مات أبي. لم أعرف أنا وأمّي وأخي التائه بين الحانات، أن نحافظ على وتيرة العمل السابقة في المخبز، لم نعرف أن ندير العمل على طريقة أبي. وأضعنا تعبه. هذا ما يوجعني، فقد أوجعته بعد غيابه. ثم ضعت في زوجي نسيم حين رأيته، تبعته دون أن أفكر مرّتين. لم أتردّد، رأيت نفسي معه وانتهى الأمر».

تحاول أولغا أن تزور أمّها كلّ صيف، لكن الظروف لا تسمح لها

أحياناً بأن تترك العمل خمسة عشر يوماً. الصيف الماضي هربت مع ابنتها إلى أمّها، وحين عادت كانت صاحبة الصالون قد سامحتها على جرأتها في المطالبة بالإجازة السنوية. أما زوجها، فلم يسامحها.

تقول إنه في حضور والدته يصبح إنساناً آخر. يصبح طفلاً مدلّلاً، وتصبح هي لعبته التي يهوى تحطيمها. وحماتها تظهر بينهما يومياً. وزوجها يقبّل يد أمّه خمس مرّات في اليوم. لا تقدر أولغا على أن تقول له إنه يبالغ في احترام أمّه وإنه لا يحتاج إلى أن يثبت كلّ لحظة أنه يضيع من دون توجيهاتها. وإذا مرّ يوم دون أن يراها، يتّصل بها سبع مرّات أو أكثر. يطلب من أولغا أن تفرك قدمَي حماتها وأن تنظف الكرسي الذي ستجلس عليه عظام المرأة النحيلة العجوز. وأولغا تنفذ ما يطلبه منها لا خوفاً منه بل احتراماً لكبر السيّدة التي أنجبت زوجها، وأعوامها الخمسة والسبعين. وأولغا تقول لي: «لا أندم على شيء ولا أعيش الحياة التي أردت عيشها. أعيشها في صالات السينما، أبحث عن عشقي الأفلام، عن امرأة تحبّ الموسيقى، تعزف على سبيل المثال على آلة التشيللو أو الكمان، وتعيش في بيت واسع مع ابنتها وزوجها فقط. لا تعمل ويتسنّى لها خلال النهار أن تقرأ كتاباً أو أكثر. أجدها تلك المرأة في مشاهد الأفلام، أجدها وأحبّها وأحلم بأن أكونها، دون أن أحقد عليها أو أغار منها».

أعرف أن موعد هيام الشهري مع أولغا ما زال بعيداً. لكنني أريد

أن أطرح على أولغا أسئلتي. تجيب أولغا عن استفساراتي كلّها برغم ملاحظات صاحبة الصالون التي لا تحبّ أن تطول الأحاديث بين العاملات والزبونات، ولا تفهم العلاقة بيننا، لكنها تخاف أيضاً من فقدي. «أتأتي هيام وحدها دوماً؟». سألت أولغا.

«مرّة واحدة رافقتها صبية في العشرين من العمر، قريبتها، أظنّها ابنة أختها المتوفاة قبل أشهر».

« لم أعرف أن لهيام أختاً رحلت أخيراً».

«لا نعرف الكثير عن هيام. فهي تأتي مرّة واحدة في الشهر، وهي ليست من هنا، ولا تعرفها أيّ من الزبونات. حتّى صاحبة الصالون لا تعرف عنها شيئاً. إلا أنني سألتها مرّة عن سبب ارتدائها أزياء سوداً، فأجابتني أنها تحبّ اللون الأسود، ثم قالت بصوت منخفض إن أختها الصغرى ماتت قبل أشهر. عندئذ لم أضف أيّ شيء. ربّما كانت تلك الصبية ابنة أخت أخرى، لا أدري. لكن حين صحبتها تلك المرّة إلى الصالون، قالت لنا هيام إنها ابنة أختها. شعرها قصير أسود وعيناها فيهما ما يشبه النار، أذكر وجهها جيداً».

هي ريما. نجحت أولغا في وصفها.

لا تجد أولغا أسباباً لحبّها زوجها. أنا أحبّ ربيع لأسباب أعرفها تماماً، لوضوح تلك الأسباب أحبّه. أما أولغا التي لا تعرف أسباب بقائها مع زوجها، أجدها غريبة الأطوار. لكنّ في وجهها مزيجاً من الجمود والرومنسية. كأنها تدرّبت على البرودة أو صُدمت ولم

تستطع أن تستعيد ثقتها بالحياة. تلهمني أولغا أجمل الصور والكلمات. اللمسات البائسة حول عينيها تمحو الأسئلة التي أعدّها لها. أختفي وأعود إليها لأعرف إذا قررت أن تنجب طفلها الثاني، إذا حملت من زوجها الذي تحبّه وتكرهه في الوقت نفسه. ولا أخبرها عن خطّتي، عن حاجتي إلى طفل من ربيع. وهي لا تسألني كما يسألني حارس البناية عن أولادنا الذين لم ننجبهم بعد.

«رأسها أجنبي»، أقول لنفسي أم هي برودتها التي تمنحها سحراً ربما انبهرتُ به أكثر لو لم أعش في أوروبا. أفكر في أن أقحم أولغا في فيلمي عن هيام. لكن كيف؟ أولغا تقول إنني إذا أنجبت طفلاً، لن أحارب خوفي من الموت بل سأصبح أشد تعلّقاً بالحياة. ترعبني فكرة أن يزداد تعلّقي بالحياة. فأزداد تعلّقاً بربيع واقتناعاً بضرورة إنقاذ لقاء حياتي بحياته.

لا يستطيع ربيع أن يعيش بعيداً عني. أؤكد لنفسي هذه الحقيقة.

وأشغل نفسي بأوراق مشروعي السينمائي الجديد. أنا متأكدة أنه في بيت سليم حيث طلب مني أن نمضي إجازة قصيرة من التعب. «التعب مماذا؟» سألته. «من التخطيط، من الحسابات واللوم، والفراغ أيضاً».

هيام أخبرتني أنها كانت تتمنّى أن يهدّدها عماد باختفائه قبل أن يختفي. لكنّه كان يذهب فجأة. وتمضي أشهر طويلة قبل أن تعرف عنه خبراً أو تراه. استغربتُ ألاّ تحسّ هيام بأي وجع خلال احتفال

عماد بزواجه ثم طلاقه، وألاّ يزداد الوجع بعد اختياره الزواج بغيرها مرّة ثانية.

استغربت أيضاً ألا تحاول هيام أن تتخيّل نساءه وأن تبتسم لإحداهن إذا التقتها، أن تحبّها أيضاً وأن تمدح هيام لنفسها عقلها الكبير وسعة قلبها لأنها تعطي الرجل الوحيد الذي أحبّته، تمنحه لمغامرات ونساء لا يتمتّعن بـ «دقّة الملاحظة»، كما تقول.

بعد خطوة ربيع هذه، قررت المواجهة. سأحارب من أجل بقائه إلى جانبي، وأظنني لا أحتاج إلى إثبات أنني مستعدّة للقتال من أجل ألا يتغيّر ما بيننا. لكنني لن أستسلم لاستسلامه من الحياة هنا. وهو يظن أنه ببساطة سيحملني إلى الحياة السريعة المصفّفة دقائقها حيث النوم لا يحدّده مزاج المدينة بل حسابات أخرى، العمل والوظيفة والضرائب والنظام، الجنّة التي بحثت عنها قبل أن أنضج ولم أجدها. الدفء هو ما أردته وما لم يختبره ربيع بعد كي يقدّره ويفهمني.

عرفت من أولغا ما اعتبرته مهمّاً جدّاً كي أفهم لمَ أبحث عن هيام فأجد ريما وأبحث عن ريما فأجد هيام. أولغا مساعدتي، تصفّف شعري وتساعدني على تنظيم رأسي أو تمرّن مخيّلتي على تلوين الصور البيض والسود أو سحب الألوان من الوجوه الملوّنة. زيارة أولغا تمنحني أيضاً متعة المراقبة كأن أراقب على سبيل المثال زميلتها المحجبة لينا التي تلفّ نفسها بالحجاب عندما يقترب النهار من

نهايته. رأيتها وهي تستعدّ للخروج، تخلع في ثانية واحدة الرداء الأبيض الموحّد. تلبس فوق السروال الضيّق تنورة طويلة وسترة فوق القميص الملوّن. ثم تنظر إلى فوق، إلى السقف حانية رقبتها إلى الوراء وتهزّ رأسها، فتتحرّك خصل شعرها السود والجعدة. ترفع صوت الموسيقى وهي تصفّف شعرها. تريد لينا شعرها أملس مثل شعر أولغا. ترفع صوت الموسيقى مجدّداً وتغيب في جسمها كأنّها تكتشفه. تدلّل لينا شعرها ووجهها بالنظر إليهما طويلاً في المرآة ولمسهما. ثم تنظر إلى أولغا وتتكلّم سريعاً بلهجة تحتاج أولغا إلى التركيز لفهم كلماتها وتختفي. أختفي أنا أيضاً. أخرج من عند أولغا إلى لغز ريما.

طلبتُ من هيام أن نلتقي. قالت إنها ستزورني في الغد. فانتظرتها في أوراق ريما التي بحثت عن نهاية ما لبوحها أو بداية قصّة ما، فقط كي أفهم ما أقرأه، وعلاقتي بما أقرأه وما تحاول ريما أن تقحمني فيه.

لم تعطني ريما في أوراقها أيّة نهاية. تركت كلماتها بلا نقاط تليها، والأصوات بلا أصداء. تركت أيضاً المواقف مبتورة. لم ينته ما كتبته ريما في الأوراق. ولم يكن قصّة أو سيناريو أو سرداً منطقياً. كان بوحاً. ريما أيضاً تبوح. ريما أيضاً تحبّ البوح.

في أوراقها تمسّكت ريما بفرصة الكلام على أمّها الراحلة. ربّما لم تستطع الكلام عليها من قبل، لم تعرف ربّما أن تحكي عنها أخباراً وحقائق أو أكاذيب، أن تفضفض لها، أن تنتقدها. دفعها موقفها غير الواضح من أمّها، موقفها الرمادي، إلى أن تكون باردة معها، باردة مع

الآخرين أيضاً، بسبب وحدة روحها. هي الثمرة الوحيدة لمشروع زواج أبيها وأمّها الفاشل والمؤلم والكابوسي. قررت أنه الحظ قبل أن تصبح قوية أو أن تدّعي القوة. قررت أنه الحظّ السيئ الذي جعلها تولد ابنة غير مرغوب فيها لأمّ، تبحث عن الحرية دوماً، وأب لا لون لحياته أو طعم أو معنى، أب هو أقلّ من أب، وحتماً ليس صديقاً ولا رفيقاً ولا أيّ شيء. كلّ ما تعرفه أنها بسببه وجدت نفسها في هذه الدنيا. كأن ريما تخرج الكلمات أشواكاً مغروزة في لحمها، كأنها تتألم وهي ترسم خطوط الحروف وتحدّد نقاطها.

وأرادت خلال لقائنا أن توهمني أنها ما كتبت عن نفسها، فمن أين أتى كل هذا الوجع الذي كتبت به الكلمات؟ أحلّل سلسلة من السطور الحائرة بين أن تكون اعترافات أو ندباً، أو مجرّد فضفضة لا تهدف قطعاً إلى التسلية، فضفضة علاجية كفضفضة نساء أفلامي ونساء مشاريع أفلامي أيضاً. تركت لي ريما في أوراقها نهاية مفتوحة، نهاية تنتظرها هي أو تنتظر مني البحث عنها، وأنا أبحث عن ريما نفسها.

دخلت هيام. وعاد إليّ أحد أحاسيس الطفولة حين لا أصدّق ما تراه عيناي، حين أضطر إلى أن أشدّهما إلى فوق، أن أجبرهما على أن تتسعا، فيرتفع حاجباي وتؤلمني جبهتي. دخلتْ بخجل. كيف يمكن أن تكون خجولة امرأة في مثل عمرها؟ هيام مؤدبة جدّاً ولبقة وشفّافة. جسمها شفّاف. بدت نحيلة وطويلة في بذلة سوداء. ارتدت تنورة طويلة وسترة يلفّها عند الخصر حزام رفيع.

قد تتخلّى عن الأسود بعد زواجها من عماد. لكنه يليق بها. ويتدلّى غطاء رأسها ليلامس السترة بأناقة. غطاء الرأس أسود طبعاً وشفّاف، وهي لا تلفّه حول رقبتها أو تجمع طرفيه بدبوس صغير بل تترك طرفيه حرّين، يتدلّيان على كتفيها أو صدرها ويسمحان لشعرها الأسود بأن يظهر. تحبّ هيام أن يظهر شعرها الأسود.

دخلت الشقّة ببطء. تمشّت في الصالون. حركتها البطيئة الرشيقة دعمت شعوري بأنها ضيفة من القرن الماضي. أحسستُ بأنني تعرّفت إليها في فيلم أجنبي قديم. حتّى عطرها ذكّرني برائحة جدّتي وبزجاجات العطور التي كان يحلو لي أن ألمس تعرّجاتها. كان العطر داخلها يبدو برتقالياً كثيفاً كأنه غير سائل، كأنه تجمّد بفعل الزمن. سئم وجوده على الطاولة نفسها أمام المرآة إلى جانب أصابع أحمر الشفاه القديمة الحمراء في معظمها، والتي لوّنت شفتَي جدّتي حتّى اللحظة الأخيرة.

برغم حزنها، وضعت هيام قليلاً من أحمر الشفاه. مسحة وردية لوّنت شفتَيها. كان عليّ أن أتأملها وأن أستسلم لأفكار تحرّكت في رأسي قبل أن أنتبه إلى أنها تمشي في الصالون، تروح وتجيء في انتظار أن أطلب منها الجلوس. صوت كعب حذائها الأنيق أعادني إليها. ذهبت إلى فكرة وجودها، إلى فكرة شخصيتها التي أحببت. ثم جلستْ. الفكرة أمامي من لحم ودم وكلمات. جلستُ أنا أيضاً على الطرف الآخر من الأريكة. تلوّن المشهد. كأن الغرفة تلوّنت بالبرتقالي، وكأنني رأيت المشهد الذي يجمعنا في فيلم ملوّن لسعاد حسني.

قالت إن بيتي أعجبها. ولم تخجل، برغم خجلها العادي الدائم، من أن تطلعني على تفاصيل بعض التغييرات التي تنوي القيام بها في منزلها بعد زواجها من عماد. تكلّمت على خططها بحماسة كأنها عروس شابّة تتأهّب للاستقرار وتتوق إليه. لم نتطرّق إلى موضوع الفيلم. لكن كلّ حركة من حركاتها أكدت لي أنني يجب أن أصوّرها، وأنها من اللواتي يمكن أن أكذب عليهن فقط كي لا أجرحهن. عرفت أيضاً أن صدقها يمكن أن يورّطني في مغامرة لست قادرة عليها الآن بسبب مشكلاتي العالقة والصامتة مع ربيع. ربما يجب أن أؤجل تشريح علاقتي به وأن أركّز على الفيلم.

حدّقت هيام إلى صوري مع ربيع في الصالون. وقفت وتمشّت منتظرةً أن آتي بالعصير. استراحت. فقدت بعض ارتباكها وتلوّن وجهها قليلاً. جلست لتتكلّم دون أن تنتظر مني تعليقاً أو نصيحة. فما زلت لا أعرفها. وهي لا تريد مني تعليقاً مباشراً، ربما تكفيها حركة في وجهي ولمعة في عيني أو نظرة استغراب.

تكلّمت قبل أن أسألها. وكنت أبحث عن مدخل مناسب للسؤال عن ريما. لكنها تكلّمت للمرة الأولى على أختها الغائبة قبل أن أسألها عنها. قالت إنها تحسّ بوجع فظيع كلّما رأتها في المنام. «كانت عنيدة» قالت هيام: «كنتُ بالنسبة إليها مثل تمثال جميل، تحبّ النظر إليه وتعرف أنه موجود دوماً في ذلك المكان، مكانه، وأنها تستطيع أن تراه متى احتاجت إلى رؤيته. كانت تحترمني طبعاً، لكن شفقتها عليّ وإحساسها بالذنب تجاهي جعلاها تهرب من صداقتي. قلما تسلّينا

بتبادل الأسرار أو بالكلام على الرجال دون أن تلومني خوفاً من أن ألومها. كانت تعرف أن زوجها الثاني يشبه زوجها الأول، وأنها تكرر تجربتها الفاشلة، تجربة الارتباط بمَن يغار منها ويحقد على نجاحها ويخاف من فقدها. لكنها كانت تبحث دوماً عن نوع من الانتحار، عن أن تجرّب المجهول»...

لا تنطق هيام اسم أختها. لا أعرف اسمها. وربما لم تذكر اسم أمّها في النص الذي كتبته عنها. لا تقول هيام أختي دون أن تسبقها «حبيبتي». «حبيبتي أختي» تقول. وتتعب حين تصف جمالها. تتنهد وتبلع ريقها وتخفي شفتيها، تبتلعهما، تدخلهما إلى فمها وتنظر إلى فوق. حكت لي هيام القصّة. الأخت دخلت أحلام أختها الكبرى وحلّت محلّها. نفّذت معظم ما حلمت به هيام. لكنها كانت تقع سريعاً في الغرام. وحين تقع تنسى نفسها، تنسى حياتها ومشاريعها ووعودها. «حين تزوجت ابن الحسب والنسب زوجها الأول كانت في التاسعة عشرة. عرفتْ أنه لن يسمح لها بأن تكمل تعليمها أو أن تمضي ساعات منكبّة على قراءة الشعر. قصائدها لم يفهمها ولم يجرّب فهمها. لكنها أحبته. أحبّت وسامته وضياعه فيها. وسعدت بسجنه في بادئ الأمر ثم بطفلتهما التي استقبلاها بعد زواجهما بعام. أصبحت أماً في العشرين، أماً طفلة في العشرين. استقبلت ابنتها ريما في السجن الذي بدأ يضيق حتّى اختنقت أختي. ثم حرّرها نضج الأمومة. حرّرتها ابنتها وأعطتها الجرأة وأعادت إليها الشغف

بالكلمات. كتبت لها القصائد ووعدتها بألا تتركها في السجن نفسه. لكنها تركتها»...

يجب أن أكون لئيمة وممثلة بارعة كي أصمت ولا أكشف لهيام عن قصّتي مع ريما ابنة أختها. لكنني المخرجة، وببساطة لست الممثلة. أحسست بسخونة في وجهي وبألم في حنجرتي. تحمّست لكلام هيام. سألتُ: «الزوج الثاني ما قصّته؟»

بين الزوج الأول والزوج الثاني أيام في فرنسا ومصر. «أكملتْ حبيبتي أختي دراستها»، قالت هيام. «وبدأت عملها الصحافي الذي اقتربت عبره من الكتابة السينمائية. كتبت للسينما نصوصاً لم تنشرها ولم تجرؤ على أن تحوّلها مشاريع فعلية. عاشت الحياة التي أردتُ أنا أن أعيشها، وماتت قبلي».

في كلام هيام على أختها قليل من القسوة. ربّما تبحث هيام عبر قسوتها على أختها عن تفسير لغيابها المبكر. لا تتشابه تجارب الفقد. حتّى لو اعتادت هيام أن تشهد على رحيل أقربائها وأفراد عائلتها، فإن تجربة الفقد تختلف بين فقيد وآخر. هيام تحكي على أختها كأنها هاجرت، تركتها واختارت أن تعيش في مكان لا تصل إليه الطائرات. القسوة نفسها، قسوة هيام على أختها طبعت كلمات ريما في نصّها.

بدا واضحاً لي أن هيام لا تعرف أيّ شيء عن لقائي الوحيد بريما. كما لم تقرأ ما كتبته ابنة أختها عنها وعن أمّها. شرحت لي هيام دون أن تدري ما لم أفهمه في نصّ ريما. ملأت نقاط الفراغ وأمدّتني بالتفاصيل كي أشرح لنفسي مواقف اعتبرتُها غامضة.

وقد قررت تأجيل إطْلاع هيام على لقائي بريما. أخاف من أن تتغيّر علاقتنا ومزاجها. لن أفسد عليها الآن حماستها لقرار الارتباط بعماد. أستطيع أن أقاوم فضولي لفهم ريما. وأتعلّق باحتمال أن تجيبني هيام عن أسئلتي كلّها إذا كشفت لها ما حدث. أحبّ هيام. أحببتها. أريد أن أهتمّ بمشاعرها وسعادتها على حساب مشروعي. وراحتها في النهاية تؤثر في مشروعي كلّه. لكنني فعلاً أريد أن أفكر فيها فقط. لا بد أن هيام فكرت في واجبها تجاه ريما في أحد الأيام. لا بد أنها حاولت إقناعها بالعيش معها بدلاً من أن تغامر بأيامها مع عماد. أو ربّما فعلاً تغيّرت هيام وأصبحت امرأة أخرى. أظنّها تخبر ريما تفاصيل كثيرة من أيّامها. وعلى الأرجح أخبرتها عني، عن لقائها بي في الصالون عند أولغا. ولا بد أنها أخبرتها أنني مخرجة نظراً إلى شغفها بالسينما. ولا بد أنها كشفت لها أيضاً أنها تخبئ في خزانتها أوراق السيناريوهات التي بدأت كتابتها ولم تنهها لأفلام صنعتها في خيالها. يجب أن تكون العلاقة جميلة بين ريما وخالتها هيام. لكن ثمة مكاناً للحقد في قلب ريما على خالتها. غيابها عن أمّها وعائلتها أثناء طفولتها وكلام أبيها على عائلة أمّها وإنْ كانت لا تصدّق معظمه، كما كتبت في أوراقها، ورائحة أمّها التي لم تعد تشمّها هناك في بعلبك عند هيام.

أخاف أن تتوقّف هيام عن البوح إذا عرفت أنني قرأت قصصها في أوراق صبيّة تشبهها وأنني أعرف ما يسمح لي بفهم حياتها وظروفها دون أن تحكي لي عنهما.

وربّما إذا أخبرتها عن ريما ثم سألتها عنها، تغيّر وجه هيام. ربّما أسندت ظهرها وعدّلت جلستها وصمتت. وظهرت في عينيها كلمات كثيرة، كلمات تتطلع إلى خروجها إلى الهواء. كلمات سُحبت من عينيها. ربّما أحسّت هيام بأنها تعرّت أمامي. بأن ثمة من نزع عن رأسها غطاءها الأسود. ربّما أحست بأنها عادت لا تثير اهتمامي. لا بد أنها تدرك ما يمكن أن تكتبه فتاة مثل ابنة أختها. ريما لا تخاف من حقدها ومن أن تعبّر عنه. ولا تخاف من أن تصنع من عقدها أفلام رعب وأشرطة تلتف حول أعناق أشخاص نصّها الذي شغلني.

أكملت هيام كلامها على أختها التي «رحلت» ولم تمت. ذهبت في رحلة دون أن تترك صوتها على الأقل. أو ربّما تركته في حنجرة شخص آخر، في حنجرة امتداد لها، غصن قطعته منها قبل أن تطير. أنا أريد غصناً وامتداداً. أريد أن أحصل عليه بالسرعة الممكنة. يمكنني أن أسأل هيام عن ابنة أختها «المسافرة»، عمّا حلّ بها، عن مكانها الآن وما تفعله. لكنني أؤجل سؤالاً كهذا إلى وقت لاحق. أخت هيام رحلت ولم تمت. أنا أخاف من الموت، قلت لهيام، ولا أسمّيه أسماء أخرى أو أستبدل الخضوع للموت بأفعال أخرى.

أطلعت هيام على خوفي المرضي من الموت. «أرتاح للحظة إذا فكرت في أننا ننتهي فجأة، سريعاً نصبح لا شيء، أو أنني سأصبح خفيفة كالهواء. لكنني أعود إلى خوفي من النهاية. أحبّ أن تبقى مني فكرة أو اسم أو صورة».

اعتادت هيام فكرة الموت منذ صغرها. «فأنا ابنة عائلة كبيرة،

أمضيت أياماً كثيرة مشغولة بحفلات وداع الحياة. وقد خدعتني طقوس الحزن التي تعكس التعبير عن المناسبة وفكرتها بعيداً عن الاهتمام بالميت نفسه. لم أسأل إلى أين يذهب هؤلاء. لم أستغرب أو أستنكر الغياب، فقد كانوا في معظمهم بعيدين عني. ويوم ماتت أمّي وجدت نفسي أمّاً طفلة، أمّاً لأختي وأخي وأبي. لم أشقّ قميصي ولم أنبش شعري ولم أفقد صوتي أو قدرتي على النطق. بكيت بصمت وأغمضت عينيّ طويلاً. كأنني فهمت. كأن ليس للموت رهبة عندي. كما لا يرتبط الموت عندي بصغر السنّ أو كبرها. ربما لذلك قررت أن أتزوج عماد في الثانية والخمسين، أن أخوض مشروع بداية الحياة، أن نبدأ معاً حياة جديدة في منتصف حياتينا القديمتين. الفرق بيننا هو أنه لا يبدأ معي حياته الأولى.

أحبّ رغبتي الآن في أن أستمتع بالحياة. لا أفهمها لكنني أحبّها. كأن رحيل أختي أيقظني من موت شخصي جداً. حتّى أنني حاولت مرّات قليلة أن أزيح الغطاء عن رأسي، أردته أن يقع على كتفَيّ ويلتصق بهما. لكنني اعتدت دفء حريره، اعتدته حتّى أصبح جزءاً مني، جزءاً من جسمي وامتداداً له. وأحبّه أسود دوماً، أختاره أسود شفّافاً، يربطني بأيام طفولتي، بصوري القديمة، بتاريخ النساء في عائلتي، بواجباتي القديمة الجديدة، بأختي التي رفضته منذ اليوم الأول. كيف رحلت أختي قبلي؟ كيف تذهب الابنة قبل الأمّ في تلك الرحلة الأبدية؟ كيف تحدّت سلطة الزمن واستسلمت للموت؟ فهمت «ميتات» كثيرة. منذ صغري أراقب أمواتاً في جنائزهم. قبلت

موت أمّي، موت شباب في العائلة خطفتهم معارك صغيرة ومعارك أكبر منها، كلّ هذه «الميتات» فهمتها، إلا موت أختي أؤجّل التفكير فيه. ما زلت أؤجّل مواجهة حقيقته ولا أصدّقه. أراها باسمة دوماً. تدخن بلا مبالاة، تنفخ السيجارة كأنها تسحب منها الحياة وتعبّر لها عن كثير من الحبّ والاحترام. «الدخان لم يعد رائجاً» قلت لها مراراً «موضة قديمة»... لم تردّ. في يومها الأخير لم تخبر أحداً أنها ذاهبة إلى البحر، في نزهة إلى الشاطئ حيث نامت. لم تحبّ أن تخبر أحداً بما تقوم به أو ما تنوي القيام به. تبرع في مفاجأتي، في إثارة سخطي أحياناً. وتبرع أيضاً في ألا تفعل ما أطلبه منها أو أنصحها بالقيام به، كزيارة الطبيب أو تغيير أسلوب أزيائها الذي لا يليق بأمّ صبيّة وكي لا يقال عنها إنها «فالتة». النصيحة الأخيرة اضطررتُ إلى الاعتذار عنها، فقط كي تتوقف عن لومي بالكلمات أو النظرات. لكنها تحبّني، أحبّتني كثيراً. تحبّني كما يمكن أن تحَبَّ أمّ هي أخت ومرآة في الوقت نفسه. مرآة أولى، مرآة على المستوى الأول العميق الداخلي».

نهضت هيام فجأة. ودّعتني دون أن تسمح لي بأن أطلب منها البقاء أو أدعوها إلى أن نتناول معاً طعام الغداء. تركتني. ونويت أن ألتقيها كثيراً. وكنت قد قرّرت أن أتقرّب منها قبل أن أبدأ التصوير وتسجيل كلامها. لكنني عرفت أنني لا أحتاج إلى أن أبني علاقة صداقة بيننا كي أنتزع منها كلاماً حميماً. فهيام قادرة الآن على البوح في أيّة لحظة، لأنها تريد الآن أن تبوح، أن تخرج ما في صدرها

وعقلها وبطنها، أن تخرج نفسها من نفسها. ولم أكن أنوي تركيب الصداقة بيننا من أجل الفيلم. أحببت هيام. وقد أصبحنا أكثر من صديقتين. ولأنني أحببتها منذ جملتها الأولى، أردت أن أصنع فيلماً عنها.

تركتني هيام. كلامها على عماد جعلني أشتاق إلى ربيع. تصبح أكثر نعومة وهي تتكلّم عنه. تصبح كأنها تروي قصة لطفل في سريره. تغنّي الكلمات وتتكلّم عليه كأنه غير حقيقي، كأنه نصفها الآخر الحقيقي. تحكي عنه كأنها أنجبته، كأنه عاد إليها بعدما انتظرته طويلاً من قبل أن تولد.

وحين تتكلّم هيام أيضاً تعود إليّ الأفلام كلّها التي سجنتُ نفسي فيها منذ صحبتني أمّي إلى إحدى دور السينما في عزّ الحرب في بيروت. كانت القاعة المزيّنة بالمخمل الأحمر قذرة ورائحتها نتنة، لكنني استمتعت أنا وأمي بفيلم «نساء صغيرات» الذي لا أنساه، بوجه الممثلة الملائكي الذي تمنيت أن أحصل عليه، أن يصبح وجهي، أن أصحو صباحاً لأجده زيّن رأسي في المرآة. وكنت أحلم أيضاً ببطل فيلم يشبه ربيع. ليس ربيع بعيداً عن أبطال أحلامي وأفلامي. ولن أحتمل خسارته الآن. وكنت أتوقّع منه أن يطمئنني عن نفسي، أن يمنع إحساسي بثقل اللحظات حين تمرّ ثقيلة، أن لا ينقل وجع المعدة إليّ. ما الذي تغيّر الآن؟ أصبح يطلب اهتمامي كلّه دفعة واحدة. يريدني كلّي أو لا يريدني. ليس جاهزاً للتنازل، كأنه خائف مني، من أن أشغل

نفسي عنه بحياة أخرى أو بحيوات أبطال أختارهم أنا لأفلامي التي كثيراً ما بنيت صداقات مع أشخاص سكنوها. تزعجه الآن علاقتي بهيام برغم أنه يشجّعني على إنجاز مشروعي معها. يزعجه غيابي في ما سمّيته له «المرحلة التحضيرية» التي اعتبرها محاولة للهرب من كلّ التزام منه ومن إنجاز الفيلم ومن التفكير في الخطأ الذي ارتكبناه، في عودتنا إلى بيروت. إلا أنني دوماً أبني علاقات مع سكان أفلامي: محمود ويمنى وأليس عشت معهم. دخلت بيوتهم وعوالمهم وتعلّمت منهم ما لم أفهمه من أيامي العادية، من حياتي التي أسعى إلى أن تتعقّد أحداثها وتثور عليّ وأثور عليها. شربت الشاي مع يمنى وحاولت أن أرسم حياتها المفترضة لو أنها ولدت في مكان آخر. وحاولت أن أتوقّع دهشة محمود النجار في متحف اللوفر أو في أيّ من معارض الرسم الباريسية العديدة. محمود الذي يعشق الألوان والحجارة لم أعرف مساعدته. دوماً لا أعرف أن أساعد أبطال أفلامي الوثائقية. دوماً أحسّ بأن عليّ أن أتراجع قبل أن أتورّط معهم في وعود أعجز عن تحقيقها. ولا أرمي نفسي في مغامرة مطاردتهم لأن علاقاتي بهم مغامرات لا تُنسى. أخاف من أن أؤثر في حيواتهم، من أن تطاردني صورهم، وأفشل في الحفاظ عليهم. وبعد أن أختفي، تصبح عودتي إليهم سخيفة وفارغة. وأحاول أن أقطع الخيط الذي يربطني بهم ويجرّني إليهم. أن أمضي، أن أبحث عن وجوه جديدة بعيداً عن تأثري بهم. لكنني لا أستطيع . ففي وجه هيام وجدت ابتسامة يمنى، وفي صوتها قبضت على بحّة صوت أليس.

ريما سلّمت إليّ نصّها واختفت. ريما لن تكون إحدى بطلاتي. لكنني أعيش معها أيامي القلقة. أبحث عنها هرباً من مواجهة قرار أساسي يتعلّق بحياتي مع ربيع. وأصحبها مع أوراقها إلى أمكنتي كلّها حيث أبحث عنها أيضاً. أحملها معي إلى أولغا في الصالون حيث أستمتع بالتفرّج على كلمات طائرة وأسرار. أستمع إلى الأحاديث التي تتبادلها الزبونات وإلى قصصهن الهاتفية. وفي الصالون أتعب من كرنفال الألوان، لكنني أستطيع أن أفهم بعض تفاصيل الحياة في البلد وتناقضاتها. برغم أنني أمشي في شوارعه مسلّحة بالكاميرا لا أستطيع أن أفهم ما ينتظره من تحوّلات وانفجارات. وربيع لا يساعدني على الشعور بالاستقرار أو تناسي احتمالات وقوع الانفجارات الحقيقية كلّما حصرت أنا وهو غضبنا في زحمة السير وتلوّث الهواء ولون البحر الذي تغيّر.

لم أجد ريما بين بطلاتي، لم أجدها في صُوري، في الماضي القريب أو الحاضر. لم تتصل بي. وحين حاولت الاتّصال بها لم تردّ عليّ. كأنها لم تكن موجودة يوماً. أيّ لعبة تلعبها معي ريما؟ ولماذا أعطتني رقم هاتفها ما دامت ستختفي؟

أنا أيضاً أريد الحقيقة التي يطالبني دوماً ربيع بأن أقرأها بين السطور في الصحف، وأن ألمحها بين المشاهد المركّبة. أريد حقيقة ما، أية حقيقة. أستطيع أن أطلب من هيام لقاء ابنة أختها من أجل تصوير الفيلم. إلا أن شفافية هيام التي ألمسها في صوتها حين يهجم على قلبي عبر الهاتف، لا تسمح لي بأن أحتال عليها. تصبح هي المخرجة وتتحكّم هي بجُملي. تستلّها منّي كما تريدها هي. لطافة

هيام تحرجني في معظم الأحيان. وهي متمسكة الآن بصداقتنا دون أن تهتم فعلاً بموضوع الفيلم. وكلّما اتّصلت بي أو زارتني أعدتُ الجملة نفسها: نحن إن شاء الله نبدأ التصوير الأسبوع المقبل. إذا زارتني مجدداً في البيت وكان ربيع غائباً فسأطلب منها أن تزيح الغطاء الأسود عن رأسها. وسأصوّر شعرها. سألفّ رأسي بغطائها الأسود وأغطي به وجهي. سأضعه كما وضعته جدّتي خلال مراهقتها. وقد أخبر هيام عن خلافي مع ربيع وعن جمود أفكاري، الذي أعجز عن تخطّيه. حين تأتي هيام، ربما أستلقي على الأريكة في غرفة الجلوس وأغمض عينَيّ وأطلب منها أن تكون المخرجة.

«أحتاج إلى قميصين آخرين وقمصان قطنيّة. ضعيها كلّها في كيس وتعالي. أنا في المطعم أتناول طعام الفطور». أقفل الخطّ. أحتاج إلى الوقت كي أُهيّئ نفسي. لكنه لم يعد يحبّ الانتظار. لا يريد أيضاً أن يدخل البيت. لا أفهم فلسفته هذه، فلسفة المقاطعة.

أريده ألا يقاوم العودة معي إلى البيت. وهو يجدني جميلة كيفما كنت، صبحاً ومساءً يشتهيني. أرتدي الجينز وأنا أفكر في أنني لا أتفق مع ربيع على وصف الأشياء التي نعيش بينها. أنا أحبّ بيتنا كثيراً. لكنه لم يعجبه. «ليس على ذوقي» كما قال لي. «ليس بيتي على كلّ حال. ليس البيت الذي أحلم بالاستقرار فيه». ربيع لا يحب الساحات ولا يهتمّ بأسماء الشوارع وأرقامها أو بحالة الطقس. مسألة الطقس هذه جنّنتني. أنا مثلاً أختبر الشعور بالسعادة حين تمطر،

خصوصاً في بيروت. حاولت أن أُقنعه بأن يقول لي إنه أحبّ اللوحة التي اشتريتها لغرفة نومنا. لكنّه «لا يحبّ أن يكذب عليّ وعلى نفسه»، كما يقول حين لا يعود رومنسياً. لا يحبّ مثلاً أن أتكلّم معه طويلاً على الهاتف حين يحلو لي أن أخبره عن أصدقاء طفولتي مثلاً أو قصص أهل الحيّ، خصوصاً الذين ماتوا منهم. يقول دائماً إنني أتصرّف كأنني ما زلت مراهقة وما زلت مؤمنة بالبلد. لا أستطيع أن أفقد إيماني بالأشياء الجميلة التي أعيش من أجلها.

أمشي نحو ربيع الذي ينتظرني في المطعم. كلامه قلّ، وفضوله خفت منذ ندم على عودته معي إلى بيروت. عدت لا أراه دون كتاب. تشاركني الكتب فيه. فلم أحسّ يوماً بأنه لي وحدي. ومنذ قررت أنني أريد أن أصبح أمّاً، انفجر إحساسي بالحنان تجاه ربيع. وأصبحت فجأة أخاف من أن أفقده.

ليس ربيع ضعيفاً لكنه أضعف من أن يتركني. إلا أنني في المدّة الأخيرة أصبحت أخاف من دخول شقّتنا واكتشاف أنه تركها، أنه أخذ أشياءه وغادر.

يقول إنني أتعبه بالتعبير عن مشاعري، إنني أعبّر كثيراً. أعبّر طوال الوقت. ويلومني على الخيبة التي واجهتْه بها حياته الجديدة في بيروت، على الفراغ. يقول إنه لا يقدر على الكتابة في أجواء من الكراهية، وادعاء القبول بالآخر وعلى مضض. «كيف يمكن أن أجد نفسي رغماً عني في مواجهة مع الآخر الذي يتحوّل في لحظة واحدة وحشاً يجب الانقضاض عليه؟». أسئلة ربيع كثيرة، لكنه صامت في

معظم الأحيان، ووسيم في معظم الأحيان. أحبّ وسامته. أحب فكرة أنه وسيم. وهو يبدو أصغر منّي سنّاً. يمكن أن تقلقني حقيقة مثل هذه خصوصاً الآن. فللمرّة الأولى أحسّ بأنه يخفي عني خطّته وبأنه بعيد. أمدّ يدي إلى يديه. يحملها بين يديه، يقبّلها دون أن يذوب. يقبّلها كأنه لا يقبّلها. لا يبرق الضوء في عينيه اللتين لا تضيقان. لا تتحرّك شفتاه ولا أنفه. لا يشمّ جلدي. «الجو رائع فوق. رغبت في نزهة. قلت أراك ما دمت غير مشتاقة إليّ ولا تتصلين بي».

«فكرتَ في موضوع الطفل؟ ألم يحن الوقت بعد؟ لا تقل لي إنك لا تريدني أن أحمل به هنا».

«وهل أنت فعلاً مستعدة للأمومة؟».

لم أجبه. ولم أغيّر الحديث. وهو خجل من الكلام على أي شيء آخر. أنقذته النادلة. تخيّلتها تحمل إليه قلبي مع فنجان قهوته وقنينة الماء. راقبتها، وهي تتأنّى في مشيتها، كأنها تلعب معنا لعبة الوقت. وكانت يداه تعصران قطعة السكّر المربّعة التي ستذوب في قهوته قبل أن يعلّق. حار أخيراً، واستمتعت بحيرته وبصمتي وبمحاولته قراءة وجهي. ورأيته مستاء ومرتبكاً وجميلاً وبسيطاً. حاولت أن أكتب له على الهواء، الذي يتمشّى بيننا، رسائل رومنسية وأن أمنع أنغام موسيقى الجاز في المقهى من أن تلتقي حزني القريب. وربما لن أحزن. ربّما سيفهم عليّ. وعندما لا أكون حزينة تخفّ وطأة وجوده في الدائرة التي أحاول أن أنغلق داخلها. لا أخجل من محاربة صمته بصوت العلكة التي أستمتع بمضغها على مهل.

بعد كلّ صمت أيّاً تكن مدّته، أنسى كيف نبدأ الكلام. ولا أنسى الوردة التي حملها لي في عيد زواجنا الأول وقال إنها من الهند. تنام الوردة الهندية في خزانتي منذ ذبلتْ.

لم أجبه. إذا أطلعته على تفاصيل قصتي مع ريما ومشروع الفيلم مع هيام، ربما أعدتُه إلى عالمي، ربما وجدته. لكنه سبقني وفاجأني برغبته في السفر، وأنا لا أستطيع السفر الآن. لم أجد نفسي بعد هنا، ولا أستطيع أن أحمل أشيائي وأذهب، هكذا قبل أن أفهم سبب عودتي إلى بيروت أو سبب مغادرتها إذا غادرتها. وأريد أن أجد نفسي مسؤولة عن عائلة، عن طفلة صغيرة أحملها من السوبر ماركت إلى السينما إلى المصرف. ربيع يريد الآن أن يقضي على فكرة تحرّكني، فكرة تريد أن تعيش فيّ وأريد أن أعيشها. رفضتُ وقاومت تعنّته. وكنت قد أغريته بمزيد من الحنان، بفرص كثيرة للكتابة، وعدته بأن أساعده. لكنه يريد السفر. يقول إنه لن يتأخّر. ستكون المرّة الأولى التي لا نتفق فيها على البقاء معاً. يحلو له منذ «حملته إلى هنا»، كما يقول، أن يقسو عليّ. يحب أن يقسو عليّ. وأنا كأنني أمّه، أسامحه دون ضغينة أو حزن، ولا أحاسبه. وهو فعلاً يقاطعني. كأنه يصوم عني وينفّذ بينه وبين نفسه نوعاً من التحدّي. يتحدّى نفسه. يشدّ على يدي، يقبّلها، يعصرها يودّعني ويرحل. لم أعرف أن أشرح لنفسي موقفه. أأُهيّئ نفسي لرحيله أم لبقائه هكذا مع مراعاة عدم رغبته في أن يبدو مسوقاً إلى اختياري أنا والذي لا يشبه اختياره أبداً؟ لكنني فشلت هذه المرة في تقدير عناده. لم يعد معي

إلى البيت. فأحسست بالهزيمة دون أن أدرك قبلها أنني في معركة. أحسست أيضاً بنوع من الخيانة. ربيع يهمل رغبتي في طفل منه أو على الأقلّ لا يأخذني على محمل الجدّ في موضوع في منتهى الأهمية.

أسعى إلى ما يمنع عني كلّ شعور بالخيبة. لكن لو أراد السفر فعلاً من دوني لسافر. ولن أقبل فكرة أنّه يربّيني أو يلقّنني درساً. ربما هو يعبّر عن نفسه، عن غضبه، عن إحساسه واقتناعه بأن ثمة ما يزعجه في علاقتنا.

لن أستسلم بل سأبادر إلى تحقيق انتصار ما.

هدأ وجهي وارتحتُ. وحلّت محل سخطي رغبة في أن أكون لطيفة لعلّ الغد يسرع في مجيئه. وضعتُ الهاتف بلطف على الطاولة أمامي.

أبحث عن ريما. أحاول الاتّصال بها لكنّها لا تردّ. اتّصلت برقمها مرّات عديدة دون جدوى. لا تردّ. ظننتُ أنها أعطتني السيناريو الذي كتبتْه، لأنني أصنع أفلاماً. وبدت مهتمّة بمعرفة رأيي فيه. لكن الموضوع كلّه أصبح شائقاً جداً بعدما قرأت السيناريو واستوعبت مفاجآته. كما لم تتصل لمعرفة رأيي في ما كتبته. اختفت. واكتفت بالاختفاء. وكنت قد أعددت سريعاً ما أردت أن أقوله لها. هيّأتُ الكلمات في رأسي ولم أكتبها. تأكدت أنني أعرف ما سأقوله. لكن أسئلتي أكثر من ملاحظاتي التي طلبت ريما الاطلاع عليها ثم اختفت. وأسئلتي تمنعني من تخيّل المشاهد المكتوبة ورؤيتها.

أسئلتي تجيبني عنها هيام التي وجدتُ صوتها حين بحثت عنه. «هيام هل أستطيع أن أزعجك اليوم بزيارتي؟». تحمّست هيام لبداية اللعبة. وافقت فوراً وحاولت أن تنقل إليّ سعادتها. «أهلاً وسهلاً. أنا في انتظارك متى شئت». أفهمت هيام أنها زيارة طويلة. لم يعد بإمكاني البقاء بعيدة. أصبحت أحد أطراف لعبة السيناريو. غرقتُ فيه وأصبحت أتخيّل هيام في مشاهد لم تعشها ولم تكتب ريما عنها. أصبحت هيام لي وعماد أيضاً، وحدها ريما ظلّت صعبة المنال وضبابية، لا أقدر على التقاطها وضمّها إلى مملكة مخيّلتي. أحرّك غطاء رأس هيام، أقرّب شعرها الأسود الناعم من جبهتها. أردّ الغطاء إلى الوراء، ألمسه... الغطاء الأسود الشفّاف.

أخيراً دخلتُ عالم هيام. وطئت أرضها المغطاة بأحلام عصافير من صوف، سجادة عريضة تتنفس خطوات هيام وتجعل بيتها شتوياً في الصيف أيضاً. تعيش هيام مع صُوَر أهلها الذين رحلوا، بعضها قديم بالأبيض والأسود نثرتها في زوايا المكتبة التي تغطّي حائط غرفة الصالون. البيت نفسه يشبه بيوت البورجوازيين في الأفلام المصرية القديمة حيث ترفرف ممثلة فراشة في تنورة واسعة منتفخة وقميص ضيّق يصعب أن تتنفّس فيه، فيصبح صوتها ناعماً جدّاً.

في صورة كبيرة الحجم، تتكئ برومنسية إلى البيانو الأسود العريض، امرأة تحمل سلّة من القشّ وتتمشّى برفقة رجل أنيق في مدينة أنيقة. المرأة تضع نظارات سوداً تخفي خلفها عينيها. تعرّفت إليها، عرفت أنها أمّ ريما. تضع يدها على صدرها، وهي تمشي،

وتبتسم ربع ابتسامة. الرجل، الذي يرافقها، تشبه هيئتُه هيئة المفكّرين. يحمل ملفّاً ويرفع يده إلى مستوى وجهها كأنه يقنعها بفكرة مهمّة جداً.

في صورتها التي تتكئ على طاولة رخام صغيرة في مدخل البيت، تحمل هيام باقة من الورد ولا تبتسم. قالت إنها تحبّ أن تبدو رصينة ورومنسية أيضاً. «الصورة تبقى ولا أعلم كيف ستكون حالتي بعد ساعات. أريد وجهي بلا أيّ تعبير كي تنسجم الصورة مع اللحظات كلّها وحالاتي كلّها».

لم تخَف هيام من وحدتها في شقّة واسعة مزيّنة جدرانها ببورتريهات لأشخاص لا تعرفهم. «وهل يجب أن نعرفهم؟ يكفي ما سمعته عنهم. يكفي أنهم أقربائي».

استمتعتُ بالاستماع إليها. مرّ الوقت دون أن أنتبه إليه، حتّى وهي تخبرني قصص عائلتها كلّها. مَن أحبّ مَن، ومَن حاول أن يقتل مَن ومَن يشبه همفري بوغارت ومَن تشبه هند رستم. ولم يكن صعباً أن تحفظ هيام أسماء الممثلين الأجانب. «قبل أن أتوقّف عن الدراسة، كنت تلميذة رصينة وذكية. أتقنت الفرنسية وأحببت الشعر العربي. وحين اضطررت إلى ترك المدرسة بعدما أصبح الحمل في البيت ثقيلاً، اكتشفت متعة القراءة. أسرق من نومي ساعات لأنفرد بكتاب. أخفيه تحت سريري وفي خزانتي. اخترت كتبي من مكتبة جارنا الحاج أبو ابراهيم. كان فخوراً بكتبه التي تجاوز عددها الألف.

وكانت أخته سهيلة تعطيني الكتب دون أن تهتمّ بما يمكن أن تحبّ قراءته صبيّة في العشرين. قرأت كلّ ما أخذته من سهيلة، كتب نقد أدبي، روايات لنجيب محفوظ، كتباً سياسية وأخرى ترمي إلى إصلاح المجتمعات».

لم تنسَ هيام اللغة الفرنسية حتّى أنها تصرّ على أن تطعّم جملها بكلمات فرنسية. وتمتزج في كلامها اللهجة البعلبكية بكلمات فرنسية تبحث عن مناسبات لاستخدامها. وقالت إنها كتبت الشعر ولم تخجل يوماً من أن تقرأه لزائراتها كي يكتشفنها ويعجبن بقدرتها على أن توجد الانسجام بين الكلمات وموسيقاها. وكانت تقدّم لكلّ مناسبة احتفالية أبياتاً تكتبها بخطّ صغير جدّاً في دفتر أشعارها، وتقرأها بصوت منخفض كلّما أغلقت على نفسها باب غرفتها. «لم أبحث عن أن أثبت للآخرين أنني أمتلك موهبة ما. لكنني اهتممت بأن أثبت لنفسي أنني أستطيع أن أحيا حياة أخرى إذا أردت، حياة ربّما مختلفة قليلاً عن حياتي، أن أحيا حياتي لنفسي. وعندما أظهرت أختي حبيبتي ميلاً إلى الكتابة، شجّعتها. قرأت معها كتبها المدرسية وساعدتها على إتمام واجباتها. كنت أتحمّس لفروض القواعد وأقرأ قصائد في كتاب اللغة العربية. لم أغَر منها، ربّما أشفقت على نفسي مرّات قليلة. وكلّما قارنت بين فرص حياتي وفرص حياة أختي الصغرى، صحبتها إلى السينما، وهناك أنسى الدنيا كلّها ولا أنسى عماد. يمرّ من أمام بيتنا، يقف قبالة الباب الحديد الأحمر، تلمس يده الخشنة حجارة البيت البيض. كنا لا نزال في البيت القديم حيث

ولدتُ وتوفيت أمّي. يدخل عماد بيتنا ليزور أخي قبل أن تبدأ غربته. يحكي بصوت عال أخبار الأصدقاء ثم يخفت صوته. وكلما اختفى صوته عرفت أنه يخبر أخي سعيد عن مغامرة جديدة من مغامراته العاطفية. أعدّ لهما الطعام، أجلس معهما أحياناً. فعماد ابن خالة أمّي وأستطيع أن أسأله عن صحّة خالاتي كلّهن. وإذا كان مزاج أخي هادئاً، أعود إلى قصص ألعابنا الطفولية التي أحكيها سريعاً لهما، فتخرج الكلمات ناقصة وألهث».

تلهث هيام كأنها تمثل المشاهد التي تحكيها. وتخرج نشيطة مرحة من غرفة الطعام ثم تختفي. وقبل أن يغادر عماد تعود إلى هيام بعض كآبتها. قالت إن عماد كان يعرف أنها تحبّه. وهو أحبّها منذ كانت في الثالثة عشرة. هي عرفت ذلك. وأقنعت نفسها بأن ظروف عائلتها وقفت بينهما. «لمتُ والدي الذي كان يعمل في بيروت حيث كان يمضي معظم أيام الأسبوع. وحين يعود إلى بعلبك، يحاول أن ينفي شائعات زواجه أو شائعات رغبته في الزواج. كانت أختي لا تزال صغيرة في السنّ، وعماد لم يودّ أن يحرجني. لم يستطع انتظاري أو أن يعيش معي بين أفراد عائلتي. فاكتفيت منه بالمعاملة الطيبة المميزة وبصورته في مخيّلتي. وسامحته. أسامحه دوماً. ألصق صورته بصورتي، ويمكن أيضاً أن أعانقه، أن أضع رأسي على صورته، أن أهمس في أذنه. كان يحلّ محل عبد الحليم في أفلامه مع شادية أو حسن يوسف الذي كثيراً ما ذكّرني به. زرعته أيضاً في أفلام أميركية سعيت إلى التعرّف إلى نجومها وأسمائهم التي لم يكن مَن

حولي يعرفونها. عماد زرعته في كل مكان. وسامحته. وبعدما خفت من غضبي منه، أصبحت أخاف على صحته».

ما لامته يوماً قالت هيام، أو طلبت منه أن يستمع إلى مشكلاتها أو باحت له بعاطفتها تجاهه. اكتفت بأن أحبّته وخافت عليه خلال أكثر من عمر. لم تصدّق هيام أنها يمكن أن تفهم يوماً قصّتها مع عماد. كانت تنقصها النهاية. وقد تأخّر الخوف على هيام. سبقته.

لن تخاف الآن بعدما مرّت هذه الأعوام كلّها. إلا أنها تدرك أن الحياة مع عماد ربّما تكون قصّة جديدة جداً ومختلفة. وليست قصة عادية، قصّة النصف الأخير من الحياة، قصّة النهاية.

تنساب كلماتنا بين النعاس والتمسّك باللحظة الليلية المنعشة. بين اسمي واسمها يضيع صوتانا، يضيعان بين الاعترافات الليلية، يضعفان حتّى النوم. ثم يصحو صوت هيام لتطلب مني أن أبقى عندها بدلاً من الذهاب إلى الفندق «في منتصف الليل».

وأنا بقيت عند هيام مذهولة بقدرتها على القصّ. بقيت لأعيش أياماً في حياتها ولأستطيع أن أغيب في كلّ من الصور الفوتوغرافية المعلّقة في غرفة جلوسها. لأفهم أيضاً من أيّ كتاب خرجت هيام ومن أيّة قصّة رومنسية دافئة حملت إليّ الدفء. وقلت لنفسي ربّما نفّذت وعدها بإعطائي نسخاً من صورها القديمة مع بعض قريباتها، ومقالات كتبتها أختها الراحلة. ولأنني أصبحت أعرفها، وعدت نفسي أيضاً بهدية صباحية جميلة تقدّمها إليّ هيام. بقيت أيضاً لأنني

بدأت للمرّة الأولى أشك في أن المشكلة بيني وبين ربيع ربّما كانت أكثر جدية. فلا يمكن أن يفرّقنا المكان، برغم تعلّقي بالأمكنة وأهميّتها في حياتي. ووصولي إلى الرغبة في الاستقرار، التي قدّمت إليّ نوعاً من الراحة، والقوة في مواجهة رعبي الدائم من الغياب الأبدي، من الموت. هيام تقدّم إليّ أجوبة عن أسئلتي دون أن تقصد ذلك. هيام تغري كاميرتي بقصّتها، وأحياناً تصبح هيام المخرجة وأنا القصّة أو مشروع القصّة فقط.

صحوت باكراً كعادتي. كانت هيام قد أعدّت القهوة والفطور. وبرغم أننا سهرنا في الليلة الماضية وأجّلنا موعد نومنا أكثر من مرّة، خرجت هيام لتمارس رياضتها الصباحية، المشي. وهيام أنيقة أيضاً صباحاً. استغربتُ ارتداءها الوشاح الشفّاف الأسود الذي غطّت به شعرها مع أزيائها الرياضية. كذلك ألصقت بالغطاء نظاراتها الشمسية بعدما أزاحتها عن وجهها. «أمشي إلى حيث كان بيتنا القديم وأعود». وقبل أن نشرب القهوة سألتني عن الكاميرا «الديجيتال» التي أحملها. اهتمّت بالكاميرا وألوانها. تعيش هيام حياة حديثة جداً مقارنة بحيوات صديقاتها وقريباتها. تعتمد اعتماداً كبيراً على التلفزيون والهاتف النقّال، كما اشترت جهاز كومبيوتر ووضعته في غرفة نومها. تسأل هيام نفسها عن أسباب تعلّقها بالاختراعات التكنولوجية الجديدة والتي لا تحتاج إلى بعضها في حياتها اليومية الفارغة بحسب وصفها.

«مَن هن نساء العائلة اللواتي تحكين عنهن دوماً؟»، أسألها.

«لا أدري متى بدأت التحرّر من أعراف عائلتي الكبرى برغم القيود التي كبّلتني بها ظروف عائلتي الصغرى. من أين أتتني تلك القوّة؟ ربّما منذ قرّرت أختي أن تكمل دراستها في بيروت وأن تعيش وحدها قبل أن تتزوج من ابن الحسب والنسب.

حرّرت نفسي من مسرحيات عائلتي الكبيرة منذ ما يسمّى أعوام المراهقة التي لم أعشها، لكنني مثّلت عليهم واحترمتهم جداً. ولا أدري الآن كيف لم أخف من ألسنة قريباتي اللواتي لا يمكن أن يغفرن لي قراري الزواج من عماد. وقد ربّتني أصواتهن. أعرفهن كلّهن، أعرف وجوههن وجهاً وجهاً وأصواتهن صوتاً صوتاً. وفي الوجوه أعرف أمكنة الشامات والأورام والثنيات. إذا أغمضتُ عينَيَّ وأنا بينهن عرفت المتكلّمة من تنهداتها، قبل أن تلفظ كلماتها. أغمض عينَيَّ بقوّة، أطبق جفنَيَّ عليهما وأشدّهما إلى الداخل. وأخفي منظرهن بكفّي أو بالغطاء الأسود الشفّاف. يتكلّمن طويلاً، يتكلّمن ببطء ودون توقّف. يعلكن الأحرف قبل أن تصبح كلمات. أبحث عن لمس الكلمات المطاطية. أحسّ بأنها لزجة وبأن عليَّ أن أجمّدها. لكنني لا أفعل أيّ شيء. لا أسكتهن ولا أشارك في الأحاديث. أكتفي بالسماع وهن يكتفين مني بالصمت. تحاول كلّ واحدة منهن أن تستمع صامتة إلى ما تقوله الأخرى، إلا أنها تعجز عن مقاومة الكلام بصوت عالٍ أو كأنها تتحدث إلى نفسها. تصبح الغرفة مسرحاً خشبياً عريضاً تتمرّن فيه ممثّلات على مخاطبة الجمهور دون خوف، وعلى

الإحساس بالوجع دون أن يرمين إلى التأثير فيه بل إلى محاولة تطهير الذاكرة من لطخ تصبح إزالتها بمرور الزمن مستحيلة. ويوحين دوماً أنهن يكشفن عن أمور خطيرة. وأنا أحبّهن منذ زمن بعيد. أحبّهن، لكنني لا أحاول أن أشرح لهن أن الحياة أوسع من عوالمهن الضيّقة. يبدين أيضاً واثقات بما يقلنه حتّى حين يخترعن المشاهد أو القصص التي يمكن أن تورّط «رؤوساً» كبيرة في القرى المجاورة.

أحبّهن. وأعرف عن كلّ منهن أسراراً أبتلعها كي لا تتسبّب، دون قصد طبعاً، بمعارك كلامية وغير كلامية أيضاً بين أقسام العائلة الكبرى.

سأكون بطلة ثرثراتهن خلال عام على الأقلّ. سيعبّرن بفخر عن قرفهن مني. فكيف يمكن أن تصبح امرأة عروساً في الثانية والخمسين حتّى لو كان زوجها من أقربائها؟ يجب أن تخجل المرأة من الزواج، خصوصاً في الخمسين أو الثانية والخمسين، حين يجب أن تكتفي بوحدتها وجلساتها مع النساء وتقديم خدماتها في الحفلات التأبينية ومناسبات وداع الراحلين من أفراد العائلة الكبيرة. ويجب أن تتقن «الخمسونية» فنون البكاء على الأموات ونسج قصص الحبّ الوهمية التي تورّط صبيّة تحتاج إلى ترويض».

تحصّنت هيام لمواجهة عواصفهن بنضج. لم تكرههن برغم اتّهامها بالجنون بعد انتشار خبر زواجها من عماد. وكن قد نفرن منها منذ قررت أن تطلب منهن الاتّصال بها قبل زيارتها لإعلامها بموعد الزيارة. قاطعنها واتفقن على أن الحرب بدأت بينها وبينهن، وعلى أن

أخبارها ستكون مادة جلساتهن ريثما يتلقّفن شائعة جديدة أو مصيبة.

«يضم مجلس نساء العائلة خالاتي وبناتهن وبنات أعمامي وعمّاتي، وكلّهن يكبرنني سناً. قلّما غادرن في معظمهن القرى المجاورة لمدينة بعلبك حيث نلتقي. وربما زادت الأرض الجرداء حقدهن على الموسيقى نتيجة تربيتهن القاسية ونقمتهن على الحب مع أنهن أحببن كلّهن. فالحبّ مخجل ومعيب حتّى لو بقيت منه في الذاكرة صورة بالأسود والأبيض. تلك بعض قوانين العائلة القديمة، لكن كثيرات كسرنها بذكاء وجرأة. الحاجة بهيجة كانت تغنّي في مجالسها ولا تخجل من أن تلوم نفسها على عدم خوضها حرباً للزواج ممن أحبّت.

أخبرك عن نساء العائلة الكبيرات في السنّ اللواتي لم يتركن قراهن ولم تغيّرهن المدينة التي تغلغلن فيها وأحببنها. هؤلاء لا يحببن بيروت ولا يعرفنها ربما لأن أولادهن في معظمهم لم ينزحوا إليها، اغتربوا أو اختاروا البقاء في بعلبك.

اعتبرتُ أنني خرجت من سلطتهن منذ زمن بعيد. ربما شجّعني على خروجي هذا إصرارُ أختي على حريّتها وجرأتها في مواجهة نساء العائلة».

هيام ترفع صوت أم كلثوم عالياً في بيتها الذي حوّلته إلى معرض صور لتعيش مع وجوه لا تعرف غالبيتها. تمشي ببطء، تمشي على مهل.

لا تحتاج هيام إلى نساء العائلة. ستمتلئ أيّامها بصوت عماد ورائحته. «سأمنعه من التدخين. سأحاول خلال أيام وشهور منعه من التدخين. ولن أستسلم لنظرياته في شأن تفاهة الحياة وضرورة الاستمتاع باللحظة وعدم التفكير في المصائب الآتية. وإذا لم أنجح في إقناعه، فسأتوسّل إليه أن يمتنع عن التدخين. فأنا أخاف فقده، أخاف أن يُخطف مني خطفاً كما خُطف أبي وأمّي وأختي. منذ الفقد الأول أحسّ بالظلم. لم يغادرني قط الإحساس بأنني مظلومة، وهو يطمس اللون في وجهي ويزيده شحوباً. لا أحتاج إلى قريباتي، سأتوقّف عن زيارة مجالسهن دون أن أتوقّف عن القيام بواجباتي الاجتماعية. فلا أستطيع ألا أنظر في عين الموت حيث يحلّ وألا أقف إلى جانب المصابين بالفقد مثلي. لكنني سأحارب سيطرتهن على ذاكرتي ومخيّلتي وصوري الفوتوغرافية لوجوههن السود والبيض. وسأضحك على خوفي الأبدي من ألسنتهن وسذاجتهن التي أحبّها برغم كلّ شيء، وقصصهن التي تكبر من لسان إلى آخر، وتتضخم وتصبح خطيرة مثل كرة ثلج.

لن أخجل منهن إذا نادتني إحداهن «يا عروس». سيبوّزن شفاههن ويحرّكنها حركات دائرية. فحتّى سميّة التي اعتبرن حملها معجزة، انتقدنها. أصبحت سميّة أمّاً في التاسعة والأربعين. كانت في الثالثة والخمسين يو م أدخلت ابنها المدرسة. سخرن من أمومتها المتأخّرة، من ركضها خلف ابنها سعد وتغيّبها عن مجالسهن للبقاء إلى جانبه».

هيام أيضاً ستغيّر حياتها في الخمسين ولن تختبئ منهن أو تردّ على وقاحة إحداهن. ستحافظ على رصانتها وخجلها الخمسيني الجميل.

الرجال في الحيّ يقنعون عماد بالزواج بشابة في الثلاثين أو حتّى في العشرين، ولا يعرفون أن هيام حياته التي أعاد اكتشافها، وقصّته الوحيدة التي لم يستطع أن يكتب نهايتها خارجها. هيام قصّة عماد التي لم يستطع أن يغادرها. وهيام قدر عماد منذ خمسين عاماً أو أكثر.

لم أتعرّف إليه بعد، لكن حضور عماد في قصص هيام أنيق وشفاف ومخيف في الوقت نفسه. وقد انهالت عليّ وطأة القصص التي حكتها لي هيام عن مغامراته العاطفية وذكائه الـ«دون جواني» ولياليه الصاخبة. تحكي عنه لأنها تعرفه جيداً ولأنها ما عرفت غيره. ولا تقول أبداً إنها تحكي عنه وتعرفه جيداً لأنها أحبّته ولأن حبّها له لم يكن عادياً. هيام لم تتزوّج، لكنها تؤكد أنها لم تكن تنتظره. كانت تعرف أنه سيظلّ مشغولاً بغيرها. ولم تحلم يوماً بأن يفكر فيها. لكنها أرادت أن تراقبه دائماً. أن تراقبه بحريّة وتتبع أخباره وتفاصيل مغامراته. بعد موت أختها ظهر عماد، وقف إلى جانبها، بكى معها. رأت هيام دموعه، رأت حزنه الصادق. لم يتركها حتّى أنها خجلت من زياراته المتكرّرة، وعرفت أنهن لن يسكتن عنها. سيقلن إنه يأتي كلّ يوم. إنه «زادها» وإن عليه أن يخفف لهفته، وأن يعيد دموعه إلى عينيه. لكنه يحسّ معها، تحسّ بأنه يحسّ معها. تعرف أنه يفكر معها أيضاً، يفكر مثلها.

مرة جاءها وكانت وحدها مع أم يوسف التي تساعدها في أعمال البيت. جاءها وكانت ترغب في الكلام. كانت مرتاحة، كأنها اقتنعت بأنها لن تفهم موت أختها أبداً. صدمته حين قالت إنها توقّعت موت أختها وعرفت من قبل أنه سيأتي مبكراً. قال لها عماد إنها «ستّ الستّات» وإنه لم يتوقّف يوماً عن التفكير فيها. كان الموقف في منتهى الجدية، وهيام كبرت على خفقان القلب والإحساس بأنها ستنهار. «أردتُ الهروب. أردت مزيداً من الهواء، وأردت أيضاً أن أضحك. الآن قلت لنفسي، الآن أسمع منه هذا الكلام. أخيراً، «ستّ الستّات» فهمناها منذ ٣٧ عاماً، لكنْ أن يحبّني ولا يستطيع التوقّف عن التفكير فيّ، جملتان انتظرت سماعهما عمراً، وهو عمر طويل أيضاً. فهناك مَن يعيشون ويموتون ويقومون بمنجزات كثيرة ربما تفيد البشرية كلّها قبل السابعة والثلاثين. جُنّ عماد. أراد أن يمسك بيدي. وقفتُ، هيّأت نفسي للهروب، لأن أركض في الشقّة دون أن أفهم ما أفعله. وقفتُ ثم جلستُ. قال إنه سيمنحني وقتاً للحزن، وذكّرني أيضاً بأن لا وقت لدينا، وبأننا يجب أن نصحّح الخطأ، أن أكون له ويكون لي قبل أن أكون أنا وهو للموت. كان قد مرّ على وفاة أختي ثلاثة أشهر. خلال زيارته تلك لم أجبه، لم أقل له شيئاً. اطمأن من نظرات الرضا في عينَيّ، من هدوئي وغياب علامات الغضب في وجهي. طلبت منه أن نؤجّل الكلام في هذا الموضوع ريثما أصبح جاهزة له. وقلت إنني سأعود بنفسي إليه في الوقت المناسب. احترم عماد كلامي. وقلت لنفسي إنه سيختفي مجدّداً لكنه لم يختف. ظهر. ولم يعد إلى

الموضوع. انتظر وانتظرت ثلاثة أشهر أخرى قبل أن أنطق جملتي تلك التي تمرّنت على النطق بها، وتخيّلت نفسي أقولها عشرات المرّات: «في ما يخصّ موضوعنا، أظنّني موافقة». كنت سعيدة تلك اللحظة وما زلت، ليس لأنني وجدت لقصّتي مع عماد نهاية سعيدة متأخّرة، بل لأنني أرغب في انقلاب في حياتي، وأكثر ما أرغب فيه هو التخلّص من الشعور الدائم بالذنب والتقصير. أمزّق هذا الشعور حين أتخطّى كلّ الخطوط الحمر بزواجي من عماد في هذه السنّ. برغم ظروفي هذه وبعد موت أختي التي كان من المفترض أن تهتمّ بي «في آخرتي» لكنّها انسحبت، فرّت من وراء الستار المغلق قبل أن تنتهي المسرحية.

أجابت هيام عن أسئلتي كلّها دون أن أسألها. وأنا مستمتعة بسماعها وبوجهها الشاحب الجميل. وصلنا إلى عماد وإلى اقتراحه المفاجئ أن يتزوجا. وافقتْ. ربما لو كنتُ مكانها لما وافقت. لكنها أرادت نهاية سعيدة لقصّة بدأت منذ أكثر من سبعة وثلاثين عاماً. أرادت أيضاً أن تُخرج نساء العائلة من جلدها وتخرج من ذاكرتها خجلها من نفسها أحياناً وهي جالسة بينهن.

«يتكلّمن عليه أمامي، يقصدن ذلك. يحببن جرحي كي يتكلّمن عليّ حالما أغادر، كي يكون ثمة ما يتكلّمن عليه. يكون جميلاً إرباكي بالنسبة إليهن. وأنا كنت أرتبك فعلاً. أحاول منع وجهي من الاحمرار ولا أستطيع. وترتفع حرارة جسمي، أحسّ بالحرارة في وجهي، أحس بأنه سينفجر. حاولت أن أتمرّن على منع وجنتيّ من أن تنتفخا

وعينيّ من أن تضيقا عبر العودة إلى مشهد سينمائي أحبّه أو التفكير في الوعود التي قطعتها على نفسي بمقاطعة هؤلاء النسوة. لم أنجح. ثم ما عدت أنزع عن رأسي الغطاء بينهن. أستعين به كلّما ضايقني ما يتحدّثن عنه. عرفت منهن أخبار عماد كلّها خلال كلّ تلك الأعوام. ولم أحاول أن أدعي أنني غير مهتمّة بالتعرّف إلى تفاصيل حياته التي لم أسأل يوماً أحداً عنها، ولم أعلّق على ما يقلنه عنه أو أشارك في الكلام عليه أو أؤدي دور الكومبارس أو الكورس في مسرحية هو بطلها وراويتها إحدى السيّدات الفاضلات. ثبّتُ عليّ تهمة الاهتمام به وبأخباره عبر الصمت، الصمت التامّ.

عماد باع المزرعة، باع الشاليه معها. أسمعهن يرددن: «ألا يخجل هذا الرجل؟ ضيّعت النساء رزقه، باع ما فوقه وما تحته ليصرف عليهن. ويا ليته يرى جيّداً، الهناء كان قبالة عينيه ولم يرَه. أعمت قلبه التنانير الضيقة والسيقان والأفخاذ العائمة في الهواء».

«وأنا لا أتكلّم»، تقول هيام. «خلال أعوام طويلة لم أقل شيئاً. تركتهن يتسلّين بي. ولم أعطهن قصة جديدة، قصّة تنبت منها عشرات القصص الخيالية التي تكفيهن شهوراً. وددن لو أحكي عليه، أشتمه ربما أو «أصفّي حسابي معه» بينهن، أو أن أقول إنني أحببته وإنني كنت مستعدة لأكون له الزوجة الصالحة وأحفظ أمواله وأرزاقه. لكنني لم أفعل، لم أخطئ مرّة واحدة. ثم كبرت. وأصبح إرباكي بقصص عماد فضيحة. فكيف يمكن أن أحبّ أو أتذكّر حبيبي بعدما تجاوزت الخمسين؟

فاجأتهن. قدّمت إليهن أكثر من مفاجأة واحدة وفرصاً رائعة للثرثرة التي تتطلّب من الكبيرات في السنّ بينهن العضّ على شفاههن وعلى خدودهن من الداخل وإصدار تلك الأصوات التي تعبّر عن الامتعاض، الامتعاض فقط.

عرفت منهن ما يمكن أن أعرفه عن عماد. أعرف أنهن يبالغن. يتكلّمن وأنا أغربل من كلامهن ما يمكن أن يكون حقيقياً وأسعد به ويهمّني أن أحتفظ به لنفسي.

باع المزرعة. أذكر منها العنب، مشهد الكروم الرومنسي. كنت أتخيّل نفسي في فيلم إيطالي، ثم يصبح الفيلم بالأبيض والأسود. يفقد ألوانه حين أتمسك أنا البطلة بغطاء رأسي كي لا يطيّره الهواء، يصبح الفيلم إيطالياً قديماً.

زرت المزرعة مع النسوة منذ أعوام طويلة حين أمضت فيها أياماً أخت عماد المغتربة. جلسنا في الشاليه، «الشا.ليه» تقول الحاجة سماهر، ترفع حرف الشين إلى فوق ثم تهبط ببطء باللام. أخت عماد أصغر مني بعامين، وهي أخته الوحيدة بينه وبين أخويه اللذين يكبرانه بأعوام وقد انتقلا إلى بيروت مع عائلتيهما. لم تنجب أم عماد سوى أربعة أولاد، وددت أن أسأل النسوة عن السبب، لا بد أنهن يعرفنه، لا بد أنهن ورثنه بين القصص التي ورثنها. لكنني لم أفعل. لم أخطئ مرّة واحدة في السؤال عن أيّ أمر يتعلّق بعماد. لم أقع في الفخ».

بعد الغداء، تمشّينا في الأرض الجرداء، في قلب قسوتها وقفرها وتاريخها وملاحمها. هيام أُحبّ صوتها حين تطول حكايتها، فتعصر شفتها العليا بشفتها السفلى وتصمت قليلاً ثم تغمض عينيها كأنها تعانق صوراً قديمة تستطيع وحدها رؤيتها. وكأنها تحاول أن تدخلها لتعيش لحظاتها مجدّداً. مشينا في الأرض الجرداء ثم أكملنا في السيارة الطريق إلى النهر.

أن تقود هيام السيارة، أن تسرع كأننا في فيلم بوليسي، أن أضطر إلى أن أطلب منها أن تخفف سرعتها ثم أرفع صوت الراديو لأن الأغنية أعجبتني. أن أكون مراهقة مع هيام، أن أصبح مراهقة مرّة ثانية، أن تحرّك أغنية شوقي إلى ربيع ... مشاهد لم أحلم بها، لكنني عشتها.

«الطريق طويلة إلى النهر»، تقول هيام. لكنها تزور النهر دوماً. لا تتوقّف عن زيارته برغم خيبته وخيبتها. تقول هيام إنّه يذكّرها بطفولتها، بنزهاتها مع نساء العائلة وأمّها قبل غيابها. تعود إلى صورة أمّها بين الأشجار قريبة من النهر. بقي لها من أمّها صورها مع النهر. تحاول أن تجد لها صوراً أخرى، لمحات من أيامها الأخيرة ولا تستطيع. يحضر النهر دوماً مع ابتسامات أمّها، وتمرّن نفسها على تذكّرها في الأيام العادية، في البيت مع قريباتهما، فتختفي الابتسامة، يحلّ محلّها شعور بالقلق يرسم تقلّصات على تقاسيم وجهها الأبيض. القلق ورثته هي وأختها من أمّها. النساء كلّهن كن ينسين القلق في حضرة النهر، يفرشن أغطية ويجلسن عليها، يطبخن

ويشربن الشاي والقهوة، يمضين النهار مع العاصي.

تريد هيام بالقرب من النهر أن تنطلق في البداية الجديدة، «تأخّرتُ في أن أسمّيها ولادة جديدة، لكن النهر يفهمني. برغم تغيّره ومعاناته فما زال قادراً على التعرّف إليّ، وما زلت أستطيع العودة إلى صوره القديمة، وإلى رقصة قلبي على لحن مياهه الجارفة أو هكذا تخيّلتها، جارفة قوية مخيفة. كنت أحسّ برهبة أمام مياه النهر، أقاوم الاستسلام لها وأهرب من قصص الأطفال الذين أغرقْتهم، أخفتهم خلال لحظات. كان النهر الذي عرفته وأبكتني موسيقاه، غير النهر الذي سترينه. كان خارجاً من أسطورة، كان يليق بالأساطير، وبقصص أمّي التي أجهدتُ نفسي لنسيانها، ونجحت. لكن بقي لي منها ما يجعلني أعود إلى نهر العاصي، وأتأكد أنني بين زيارة إلى النهر وأخرى كبرتُ مئات السنين».

قطعنا في السيارة مسافة طويلة من الصحراء قبل أن تدلّني هيام على العاصي. تحتاج هيام إلى قوّة اسم النهر. ليست هيام عاصية، لكنها اختارت نهاية غير مألوفة لفيلم حياتها، نهاية أصابت سكّان أيامها بالصدمة. وحده النهر المقلوب الذي يتجه من الجنوب إلى الشمال يفهمها، تقول هيام. هي أيضاً تبدأ حياتها «بالقلب»، تبدأها من النهاية.

«كنت أزور النهر مع أختي. نبحث عن المياه بين تعرّجات الصحراء. بالقرب من النهر نفقد جدّيتنا. وبرغم وجودي، لا تخجل من أن تكون على طبيعتها، أن تثرثر، وتفترض أموراً غير معقولة

وتدخّن. إلى جانب النهر فقط كانت تأكل وتشرب بشهيّة، تلتهم الفرّوج المشوي وتشرب الكثير من القهوة. هنا تشتهي الكلام أيضاً، تهبه للنهر، ترميه فيه، تخبئه له من الصحراء التي تنقضّ عليه وتفتح عيونها المفتوحة بالدبابيس والأشواك واسعة قاسية قسوة الإهمال والنسيان اللذين لم تعرف سواهما».

كان عليّ أن أخفف دهشة كاميرتي بالمناظر، بالمياه المختبئة بين تضاريس صحراوية لا ترحم. كان عليّ أيضاً أن أركّز على ما تقوله هيام وأن أدخل عوالمها، من عالم إلى آخر... أبواب مشرّعة على قصص وحقائق وأحاسيس ومناظر ولوحات وصور... أتعبتني هيام، «سيّدة السيدات».

«تصوّرين غداً، سنأتي إلى هنا مع عماد بعد عقد القران. سنقطع المسافة، نعم، لأني كثيراً ما حلمت بزفاف على النهر. وعدتُ العاصي بأسراري التي لم أجدها. بحثت عنها ولم أجدها، حاولت أن تكون لي أسرار، حياة خفية، لكنني لم أعرف أن أمنح نفسي ما أردته. كانت حياتي ملكاً للجميع، ونهر العاصي شاهد على ذلك. الآن أريده شاهداً على اختياري الأخير، سأعتبره اختياري الأخير، قفزة إلى المجهول الذي أعرفه جيداً، إلى ذراعين طوّقتاني في أحلامي، وأستطيع أخيراً أن أحسّ بدفئهما، لكنني أستطيع أيضاً أن أستغني عنهما... اخترت أن أجرّب الدفء الذي أعتبره مجرّد اختيار، والعاصي شاهد على ذلك».

لم أترك كاميرتي المتواضعة. هيام لا تراها، لعلّها ترى نفسها فيها فحسب.

في سيناريو ريما أطلّ الوجه الشاحب الجميل نفسه، وجه هيام. وصلتُ إلى الجواب قبل أن أسأل نفسي. لا أستطيع أن أسأل هيام متى أخبرت ريما عني. ولمَ اتّصلت بي ريما وقدّمت إليّ السيناريو الذي كتبتْه. ربما أرادت أن تؤخّر مشروعي مع خالتها هيام أو أن تدخل على الخطّ فقط، وأرادت أيضاً أن تبوح.

قبل أن أفاجئها بزيارتي الطويلة، دعتني هيام أنا وربيع إلى اجتماع عقد قرانها. لم أكن لأفكر لحظة في أن أصحب ربيع معي. ولم تسألني هيام عنه. تعرف فقط أنني متزوجة وأخبرتها بأنني أرغب في أن أصبح أمّاً. أحسّ للحظات قليلة بأنني يجب أن أجذب اهتمامها وعاطفتها بإحساس أشرحه أو رغبة أكشف عنها. وهي تعرف أن تثير فضولي كلّ لحظة. حتّى وهي صامتة. وجه هيام ثري. وجهها وحده ينطق بالقصص ويخبر عن أكثر من حياة واحدة. مع هيام يجب أن أكون هادئة دوماً، أن أكون ناعمة، أن ألفظ الحروف على مهل وأبتسم بهدوء.

سألتها بنعومة عن ابنة أختها، عن ريما. تغيّر وجه هيام. أسندت ظهرها وعدّلت جلستها على الكرسي البلاستيكي الأبيض وصمتت. وظهرت في عينيها كلمات كثيرة، كلمات تتطلع إلى خروجها إلى الهواء. ظهرت لي كلمات سُحبت من عينيها. وقالت إنها أخبرت ريما عني، لكنها لم تتابع بقيّة القصّة.

قالت إن ريما تتصل بها في العادة كلّ يومين أو ثلاثة، وإنها في بيروت أو في منزل أبيها في الجبل. «ريما تريد السفر وحدها إلى مونتريال حيث تريد أن تكمل دراسة الفلسفة. لا أدري هل كان والدها «الفهيم» سيرسلها وحدها. وهي مصرّة على مسألة الوحدة هذه. لا أعرف. أظنها تحتاج إلى أن تجرّب العيش وحدها في الخارج. لعلّها في الخارج وحدها تحب نفسها وتنتبه إليها».

وجدت نفسي فجأة أشارك في فيلم عائلي جداً. لكنّه فيلم يحتاج إلى الألوان. لم تشأ هيام أن تطيل كلامها على ابنة أختها كأنها تريد أن تنساها، أن تشغل نفسها بأي كلام كي لا تفكر فيها.

شربنا الشاي ومشينا. تذكّرت أنني نسيت ربيع . وحين تذكّرته لم أكن غاضبة منه. شفتني هيام من غضبي، وأصبحت أفهمه أو أصبحت مستعدة لفهمه. للأرض الجدباء، للمدى أيضاً دور في سعة قلبي وعقلي. ربيع مثلي يتعلّق بالأمكنة ويحسّ في بعض شوارع بيروت بأنه يمشي في استديو واسع حيث الحياة دون ألوان، مجرّد حياة، حياة بالأبيض والأسود، دون أقواس قزح وعلب ألوان تملأ اللوحات البيض في الشوارع . تختفي ألوان الحياة حيث يهدّد العنف بانفجاره . ويدبّ الرعب في مدينة تفقد ألوانها. الأخضر اختفى والأحمر أصبح قديماً، أمّا الأزرق فلون السماء فقط . أبحث عن الأصفر والوردي والبني في بيروت ولا أجدها. ثم أنظر إلى وجه ابنتي التي لم تولد بعد. لا أستطيع أن أعرف هل كنت أحلم أو أعيش بداية نهار جديد. طفلتي تبتسم. لكن ابتسامة الأطفال لا تتغيّر بين

الحلم والحقيقة. في محفظتي صورة لي ولربيع من رحلتنا إلى اسطنبول.

دوماً تغريني الصور بالعودة إليها. أتخيّل أنني انكمشت، أن حجمي أصبح صغيراً جداً وأنني دخلت الصورة. أنا أيضاً أعيش في الصور. ودوماً تعيش فيّ الأمكنة.

أريد أن أجد القرار المصيري، مثل ريما أريد أن أمسك بقرار ما، أن أسيطر عليه لأسيطر على حياتي. أستطيع أيضاً أن أنتظر القرار. ربما يأتيني من ربيع أو من موقف ما في بلد المفاجآت.

حملت معي أوراق ريما إلى بعلبك. خبأتها في حقيبتي، ووعدت نفسي بأن أكشفها لهيام إذا تسنّى لي ذلك.

انتهى النهار سريعاً. قررت أنا وهيام أن ننجز مهمّة الزيارة السريّة إلى سهام مصفّفة الشعر. «لو أولغا هنا، لاهتمّت بك كما يجب»، قلت لهيام.

تحت الضوء رأيت بين عينيها ثلاثة خطوط، وفي جبينها أمواجاً ناعمة وحول فمها حروفاً ضلّت الطريق إلى الهواء.

«لا بأس فما زال لدي متسع من الوقت قبل أن يتقوّس ظهري ويخفت الضوء في عينَيّ وأعجز عن تنظيف البيت أو طهو الطعام للناطور. قلت لك إن الموت لا يخيفني بل أخاف من أن يعجز جسمي عن الحركة وعن تنفيذ أوامر عقلي».

أخيراً رأيتُ هيام تنظر إلى شعرها حرّاً في المرآة. دلّلته بخجل،

كأنها وحدها في الغرفة أو كأنها نسيت وجودنا. ثم بصمت ثبّتت الغطاء على رأسها وخرجنا. كدت أن أحمل هيام من سعادتي لسعادتها. كدت أن أحملها وأركض. لم أكن سعيدة إلى هذا الحدّ يوم زواجي من ربيع. سعيدة دون القلق الذي يمكن أن تحسّ به عروس تنتظر أن تتغيّر حياتها. كنت قد اتّصلت بأولغا في الصالون وطلبت منها المجيء إلى بعلبك، إلى منزل هيام. أعطيتها العنوان وتعبت من الإحراج حين حاولت أن أنقل لها أنني سأعوّض غيابها عن الصالون بمبلغ سيكون هديّتي لهيام. لكنها لم توافق على فكرتي. أعجبتها وتحمّست لها ثم خافت. «كان عليك أن تهيئيني لموقف كهذا. لا أستطيع أن أغيب عن الصالون دون أن أستأذن المدام سلفاً». أولغا تكره المجازفة الآن بسبب خوفها على نفسها من أن تحتاج إلى الآخرين. وتبدو جاهزة دوماً لأن تتلقى مفاجأة غير سارّة أو أن تستقبل مصيبة. هربت من مزيد من الإحراج. قلت لها إنها كانت مجرّد فكرة مجنونة وإنها محقّة في اعتذارها عن المجيء. لا بأس. لا تعتمد هيام على أولغا اعتمادي عليها. فكرة أن تنضمّ أولغا إلينا تناسبني أنا، تقرّبني من حلم جمع النساء اللواتي يؤثرن فيّ أو يشبهنني في فيلم واحد. خرجت أولغا من حياتي، من حلم كاميرتي بها، أردت أن أتصوّر أنا وهيام وأولغا صورة تذكارية، أن نكون معاً في يوم كهذا.

سألت هيام هل كان عماد راضياً عن أن أصوّره، عن فكرة الفيلم الذي سيظهر فيه عريساً صامتاً معظم الوقت. فأنا أريد أن يظهر عماد من خلال عينَيّ هيام فقط، أن يُسمع صوته بين كلماتها. أريد أن

أحتفل بانتصارها عليه. وهي لا تقول إنها انتصرت عليه بالأيام الماضية، بوحدتها أو بحاجته هو إلى الاستقرار. تلمّح إلى حبّ أسطوري يجمع روحها بروحه. تقنع نفسها بذلك. تتكلّم على قصّتهما كمراهقة من القرن التاسع عشر وقعت في الحب. وكثيراً ما أتخيّل عماد قبل أن أراه. أتخيله وسيماً أنيقاً طيّب الرائحة. سألتها هل كان سيعترض على وجودي مع الكاميرا. «يقبل بكلّ ما أقترحه وكلّ ما أطلبه منه ينفذه. أحياناً أستغرب، كأن ليس عماد مَن يبدو جاهزاً لأن يدلّلني كلّ لحظة».

ليست هيام خائفة. لا أسألها هل كانت تشعر بالخوف من أن يتغيّر عماد وأن تكتشف أنها أخطأت.

« أريد أن أجرّب، أن أستثمر أيامي، أن أتصرّف بها وفقاً لمزاجي أنا. عدت لا أريد أن أنفّذ ما أعتبر تنفيذه واجباً عليّ. وأنا واثقة بنبل عماد. أعرفه جيّداً. أعرف أن مسلسل علاقاته انتهى وأنّه كان يبحث عني في ضياعه... في أعوامه الستين الماضية، في زوجتيه السابقتين».

منذ يومين، منذ وصلت إلى بعلبك، لم يظهر عماد. لم أرَه. فكرت للحظة في أنه ربّما كان غير حقيقي، ربّما اخترعته هيام ونسجت ريما فكرته في أوراقها. ربما كان مجرّد شخصية في نصّ وبطل حكايات في مخيّلة امرأة تحبّ الأفلام السينمائية. «هل يمكننا أن نجتمع نحن الثلاثة أنا وأنت وعماد؟» سألتُ هيام. «ليس الآن، سترينه لاحقاً، ربما غداً. ستعرفينه قبل أن أدلّك عليه. ستعرفين

مباشرة أنه لي وأنه لطيف ووديع وجدير بثقتي».

«مَن يشبه؟ صفيه لي».

«لا يشبه أحداً. ربما كان مظهر شعره قريباً من مظهر شعر جورج كلوني، لكن لونه أكثر بياضاً. ستحبينه حتماً. لن تخافي منه. أنا عدت لا أخاف منه. منذ طمأنني عن أن ولديه موافقان على ارتباطنا، استرحت. لم أطلب لقاءهما. لا أريد لقاءهما، أحدهما مع والدته في أميركا والآخر يدرس في بيروت في الجامعة الأميركية. عماد لن يؤذيني. أنا حبّه الأول، وهو لم يحبّ غيري، لم يحبّ أيّاً من نسائه. وأنا لا أتكلّم معه على الماضي كي لا أوقف حاضري، لا أتكلّم عليه كثيراً برغم رغبتي في أن أشتمه أحياناً حين أتذكر اختفاءه وخيباتي. لا أعود إلى الماضي كي لا أوقف حاضري، كي لا أتخلّى عمّا وصلت إليه الآن مع نفسي، عن جرأتي التي لم أتوقّعها أو أتخيّلها. لا أريد أن أفكر في ما أفعله. أريد أن أسلّم نفسي لرغبتي في أن أكون خفيفة، أن يكون رأسي خفيفاً وألا ترى عيناي ما رأتاه دوماً، ألا أفكر في نساء عائلتي اللواتي متن بعد الطفولة بقليل، في مرحلة ما بين الطفولة والمراهقة، في كابوس قصير ينتهي معه كلّ شيء».

استمعت سهام مصففة الشعر إلى بعض أسرار هيام في رحلتنا السرية إليها. استمعت الكاميرا أيضاً إلى معظم أسرار هيام منذ وصلتُ إليها قبل يومين. تريد هيام أن تقفز إلى عيون البشر كلّهم، أن تعلن للكاميرا ولادتها الجديدة.

بعد الرحلة إلى سهام، دخلتُ الشقة مع هيام التي تمسح لعاباً

التصق بخدّيها من شفتَي أم نبيل وجعلها لا تندم على امتناعها عن زيارة مجلس ابنة عمّتها نادية. «اشتقنا لك»، قالت لها أمّ نبيل. فسألتها هيام عن الأولاد والإخوة والأخوات والأحفاد والأقرباء كلّهم. وحين اقتربت منها أمّ نبيل لوداعها، ألصقتْ هيام فمها بوجنتها وقبّلتها من قلبها مدركة أنها بعد دقائق ستنضمّ إلى النساء للكلام عليها.

في الصباح «الست أم كلثوم» تغنّي وهيام تتحرّك في الشقّة دون أن تفهم حركتها. تدخل غرف البيت وتخرج منها كأنها تبحث عن شيء ما. هكذا تنتظر هيام وصول عماد. تلامس الصور المعروضة على الجدران في الصالون، والتي يسكن بعضها الأطر. وتمسح الغبار عن الصور التي شكّتها في أطر اللوحات الفنية المعلّقة. على الكمان المرسوم سجين اللوحة الكبيرة ألصقت صور ريما ابنة أختها خلال مراحل مختلفة من طفولتها. وعلى لوحة الذئب ألصقت صور أختها الراحلة التي التقطت لها قبل أيام من مغادرتها البيت للزواج من غسان، «ابن الحسب والنسب» والد ريما. تمسح الغبار عن بعض الصور وتقبّل بعضها الآخر. وتنتظر. قال إنه سيحضر في الحادية عشرة ليصحبها إلى الشيخ الذي سيعقد قرانهما.

أنا ركّزت على ريما. صورها قديمة. الجديدة بينها تعود إلى عامين أو أكثر. يظهر ذلك من وجه ريما فيها، والفرق الذي لاحظته بين الفتاة التي التقيتها في الحديقة وبين الصبيّة التعيسة في الصورة. وتشبه هيام

أمّ ريما كما وصفتها ريما في أوراقها. العينان سوداوان جداً تحت حاجبين رقيقين والوجه أبيض شاحب. «ريما» بطلة نص ريما الحقيقية علّقت صورة أمّها عريضة طويلة خلف سريرها. وقالت إن أمّها تبدو كأنّها تستعدّ للقفز من داخل الصورة، كأنّها تتأهّب لمعانقة الكاميرا أو لأن تحلّ محلّ المصوّر. هكذا بدت أمّ ريما أيضاً في صورتها في غرفة الجلوس في بيت أختها هيام التي وعدتني بألاّ تخجل من زواجها يوم زواجها. لكنها لا تريد أيضاً أن تبدو وقحة. حتّى اللحظة الأخيرة تخترع لنفسها أسباباً لانهماكها بالزواج من عماد.

هيام ببساطة تخاف من أن تموت وحدها. ولن تقبل أن يموت عماد قبلها. كلّهم ماتوا قبلها، أمّها وأبوها وأختها. بقيت لها ريما ابنة أختها التي ما إن تظهر في حياتها وتفرح بها حتّى تختفي.

تخاف هيام على ريما من نفسها، من قدرتها على القسوة على نفسها وعلى مَن تحبّهم. لم تقبل أن تعيش مع هيام حين عرضت عليها البقاء في بعلبك. لا يمكن أن تتوقّع هيام ردّ فعل ابنة أختها. وتبرع ريما دوماً في مفاجأتها. وهيام تخطئ دوماً حين لا تهيئ نفسها لمزاج ريما المجنون. هي ابنة أختها حبيبتها الراحلة لكن والدها أبعدها عنها وعن أختها خلال أعوام طويلة. وحين عادت إليهما، ثارت عليهما. ثارت على أمّها خصوصاً بعد موتها.

وصل عماد. هيام تملّس الستائر بيدها. ترجع خطوات إلى الوراء لتنظر إليها من بعيد. ثم تقترب منها وتلمسها. لم يهبط قلبها إلى

قدميها. لم تخف. ليس لأنها كبرت على أحاسيس من هذا النوع بل لأنها تخيّلت هذا السيناريو خلال أكثر من سبعة وثلاثين عاماً. لم تتخيّله كما تعيشه الآن، لكنها درست سيناريو ارتباطها بعماد على مدى أعوام طويلة. السيناريو يتبدّل كلّما تقدّم بهما العمر. لكن الفكرة لم تغب عنها. خلال أربعة وثلاثين عاماً هربت هذه اللحظات من هيام. وحين كانت تصلها أخبار مغامرات عماد العاطفية ثم قصص من زواجيه، كانت تهنئ نفسها على الخيار الصائب دون أن تتوقّف عن مراجعة المواقف واستعادة المشاهد في رأسها منذ كانت بالأبيض والأسود حتّى تلوّنت. منذ أيام لعبهما على ضفّة نهر العاصي، والأحداث وحدها تحدّد خيارات هيام. فهي لا تعرف الأنانية، وربّما نشأتها بين نساء العائلة الكبيرة وخدمتها أفراد عائلتها الصغيرة حددا العديد من خياراتها. هيام الآن في الثانية والخمسين. وهيام اليوم عروس في الثانية والخمسين. وما زالت حتّى هذه اللحظة قادرة على الهروب من المشروع كلّه. تستطيع أن تغيّر السيناريو بكلمة واحدة، أن تقول لا بدلاً من نعم، لكنها الـ «نعم» الوحيدة التي أرادت عبرها أن تنتقم لأعوام طويلة لم تعرف خلالها أن تقول لا. كانت تبرّر تصرّفاتها غير المقتنعة بها وتلك التي تزعجها أيضاً بأنها تقدم عليها فقط كي لا تتعب عقلها الكبير. وهي الآن تستعد للقيام بما تعتبره نساء العائلة دليلاً على جهلها وعلى «نقص في عقلها»...

خلال انتظارها وصول عماد، لم تضرب رأسها بكفّها، لم تشدّ غطاء رأسها الأسود الشفّاف أو تحسّ بأيّ رغبة في الاختفاء. مثل

عقلها، قلبها كبير الآن. ولا تخاف من أن يحلّ عماد بعد زواجهما في المساحات المخصّصة لها، فهي تعرفه خفيفاً. لن يشوّه عماد الوجه الجميل من وحدتها. لكنها معه لن ترفع صوت التلفزيون ليلاً، ولن تضطر إلى أن تخفت صوت الراديو نهاراً كي لا يقول الجيران إنها تتصرّف كالمراهقات.

وصل عماد. وضعت على شفتيها قليلاً من اللون الوردي. ولولا حزنها على أختها الصغرى، لوضعت الظلال أيضاً والكحل الأسود. في البيت كلّ شيء ينتظر عودتها كما كلّ يوم. لم تُعِد إلى العلب بعضاً من الصور التي نثرتها على جدران غرفة الجلوس والصالون أو التي علّقتها بين اللوحات وأطرها أو أسندتها إلى رفوف المكتبة. بعدما عاشت معها الصور وآنست وحدتها، لن تستغني عنها الآن. يستطيع عماد أن يتأقلم مع الوجوه في الصور، أن يتعرّف عليها عن قرب ويتعايش معها.

عماد ينتظرها في مدخل البناية. لحظةَ نظرت إلى عينيه، لمحت ارتباكه. جلست خلف السائق. لم ترتجف أو تخجل أو تبتسم. ولم يظهر على وجهها أيّ نوع من أنواع الحماسة كأنها ذاهبة إلى السوق أو إلى السينما. لم تغيّر وجهها.

استغربتُ أنا المخرجة قدرتها على تجاهل الكاميرا وتجاهل وجودي. «صديقتي المخرجة»، قالت لعماد. وأنا صوّرتها احتفالاً بزواجها منذ انطلقت سرّاً إلى الصالون لتصفيف شعرها. أردت مشاهدتها في البيت قبل نزولها لملاقاة عماد في السيارة، صامتة.

وهيام أرادت خطوة الزواج هذه ثورة صامتة، ثورة على حياة لم يتسنّ لها أن تقرّر اتجاهاتها بنفسها. بل استسلمت لما كان يجب أن تفعله وما يتوقّعه منها المحيطون بها.

وقّعت هيام على ورقة صغيرة. وقّع عماد أيضاً. «مبروك»، قال لها. «مبروك» أجابته. لم تتأثّر، لم تتلألأ دموع في عينيها. أرادت أن ينتهي كلّ شيء سريعاً. أن تنفّذ ما قرّرت تنفيذه وأن ينتهي الأمر.

وأنا المخرجة، أتابعها بدهشة. قبالة الكاميرا صمتُّ. كان عليّ أن أصمت. وخلف الكاميرا طرحت عليها أسئلة ظنّت أنها لن تنتهي.

«مبروك»، قلتُ بدوري. مرّت اللحظات سريعة. سيحتفل بها العروسان الآن في غداء على النهر.

لا تتركوا الحصان على ضفّة النهر. سيبدو المشهد «مفبركاً»، كأنني أصوّر فيديو كليب أو منام فتاة عاشقة. قررت أنا المخرجة إهمال اقتحام الحصان المقهى المبتلّ بمياه نهر العاصي. أهملتُه والتفتُّ إلى بطلتي. لكنه مشهد يحتاج فعلاً إلى كاميرا. وكيف لا أصوّره وقد وصل إليّ الحصان دون أن أبحث عنه؟ وجدته حيث تحتفل هيام مع عماد بزواجهما الذي تأخّر أكثر من خمسة وثلاثين عاماً. تبتسم هيام ببطء وتتحرّك ببطء أيضاً. تؤدي دور العروس، تقصد أن تؤديه، كي تلغي مبدأ الحرمان الذي بنت عليه حياتها خلال الأعوام الإثني والخمسين الماضية. لا تحرم نفسها من أن تبتسم أو أن تخجل للحظات طويلة أو تعيش مشاهد سينمائية. وقد كرّمت

حبّها للسينما بنسيان «كاميرتي» التي تلاحقها. تنظر إليّ دون أن تراني كأنني لست موجودة وكأن الكاميرا شفّافة، كأنها هواء رُسم عليه باللون الأسود. تتعاطى مع وجودي خلفها أو قبالتها كأنني أقوم بواجب تجاهها، كأنني ولدت لتصويرها الآن ولأؤدي مهمّتي جيّداً.

لم آتِ بالحصان. لم أطلب وجوده في المقهى النهري . كانت هيام قد سألتني: «هل سبق أن تعرّفت إلى نهر العاصي؟... أعشقه، أرى مياهه أجمل من آثار الرومان ومنظر غروب الشمس من سطح بيتنا القديم».

يخيفني شغف هيام بالمشاهد السينمائية. فأضحك لانفجار مراهقتها في الثانية والخمسين. سألتُها هل كانت تكتب الشعر أو تشاهد في مناماتها أفلاماً سينمائية لممثلات مصريات وهوليووديات سكنّ شبابها، كما أخبرتني، وحفظت أدوارهن في أفلام مختلفة. «كيف تحفظين الأدوار في الأفلام الأجنبية؟» سألتُها. «أحفظها مترجمة. وأحياناً أعيد كتابتها بالعربية، كما فهمتُها». ولم تخجل من ألعابها وتدوينها كلام الأفلام في دفاتر ملوّنة مثل دفاتر الفتيات اللواتي لم يكتشفن الحياة بعد. لو كنت مكانها لخفّضت صوتي وأنا أنطق الجملة الأخيرة هذه. لكنها أمام حبّها السينما الذي قررت الاستسلام له، فقدت أيّ حياء، وربما تخلّت عن غطاء رأسها الشفّاف الذي لا أريدها أن تتخلّى عنه، على الأقل ريثما ننتهي من التصوير. وأعرف أنها لن تتخلّى عنه وأنه جزء من هويّتها ومن أنوثتها وأناقتها السينمائية أيضاً. فهيام تبدو دوماً كأن مكواة مرّت

عليها وخلّصت أناقتها من أيّة ثنية في غير مكانها وكأنها كلّ نصف ساعة تُدخل على لوحة أزيائها تعديلات.

لم أطالب أنا المخرجة بحصان لكنني وجدته هناك بنياً أدكن يرسم أشكالاً بحوافره على التراب. هيام تجيب عن أسئلتي بحماسة وهدوء. وبين اعتراف وآخر، تنظر إلى عماد. كأنها تصوّر الفيلم لأجله، لأجل أن يراها بعيون كاميراها الداخلية. أن يكتشف ما لم يكتشفه فيها بعدُ خلال أربعين عاماً أو أكثر. تجيبني بهدوء جالسة مع عماد إلى طاولة قريبة من مياه النهر. قرّبا الطاولة من المياه كي يبتعدا عن زوار المكان الآخرين. هيام تتكلّم مع عماد من خلالي ومن خلال الكاميرا. وتلهو بتثبيت غطاء رأسها الشفّاف. عروس تغطّي رأسها بالأسود. يخبر هدوؤها عن إحساسها بالرضا عمّا اعتبرته مغامرة عمرها المتأخّرة. تبتسم عيناها الواسعتان الذابلتان دوماً. تبتسم للكاميرا لحظات. تبتسم لي وتقول إنني ظهرت في حياتها لأشجّعها على مكافأة نفسها واكتشاف نفسها أيضاً. الوقت يتأخّر دوماً. «لكن لا بأس». قالت هيام. وطلبت من عماد أن يتمشيا معاً قبل عودتهما إلى المنزل. يعود عماد معها، فهي لا تترك منزلها أو الصور التي عاشت معها وأقنعتها بأن ثمة لحظات لا تتكرّر، وعليها أن تتعرّف إليها وتحاول أن تلتقطها أياً يكن الثمن.

القصّة على وشك أن تنتهي. وأنا أعيش فيها منذ أسابيع. لا أستطيع الخروج من دائرة رسمها لي غياب ربيع واختفاء ريما. أيّ وسيلة اتّصال أخرى تسمح لي بأن أجدها غير هاتفها النقال الذي

أحتفظ برقمه، وبريدها الإلكتروني؟

الآن فقط فكّرت، الآن انتبهت إلى أنني أستطيع أن أسأل هيام عن اسم عائلة والد ريما التي لا أعرف اسم عائلتها. لم أعتبره مهماً تلك المرة الوحيدة التي رأيتها فيها. ولم تخبرني هيام باسم عائلة صهرها السابق وأنا لم أسألها عنه. فأما زلتُ فعلاً أريد البحث عن ريما؟ أظنّ أن الهروب هو الحلّ الأجمل دوماً. في الهروب غموض أنيق ورومنسي. وأنا أهرب الآن إلى المشهد الأخير من قصّة هيام التي هي قصّة ريما أيضاً. ريما كتبتها وهيام عاشتها وأنا صوّرتها. مثّلت هيام الدور دون أن تقرأ النصّ. هكذا سينتهي فيلمي على ضفّة النهر. أيّ نهاية أفضل يمكن أن أتمنّاها لفيلم من أفلامي؟ كنت أطرح على نفسي هذا السؤال حين لمحتها، لمحت ريما. تقف بعيداً وتقترب من مياه النهر كأنه يغريها بأن تسلّم نفسها إليه. لمحتها ولم أفتح فمي. اقتربت ريما من ساحة الاحتفال حيث طاولة العروسين، ونظرت إليّ دون أن يتغيّر في وجهها شيء، كأنها لا تعرفني، كأننا لم نلتق. لعبت معها لعبتها. أنا مضطرة إلى أن ألعبها كي لا تكتشف هيام أننا التقينا. لم تركض ريما نحو خالتها هيام لتقبّلها. نظرت إليها نظرة إعجاب وسخرية في الوقت نفسه. قبضت عليّ ريما من بعيد. قبضت عليّ حاملة الكاميرا التي هربت منها. مشيت نحوها، لكنها لم تبدُ مهتمّة بي. كأنها لم ترني. وقبل أن أقترب منها تجاهلتني ومشت نحو هيام التي بدت سعيدة بها ومذهولة أيضاً. قبّلتها وحضنتها وشمّتها. نظرت إلى وجهها طويلاً وبكت. لم تتكلّم ريما ولم تلتفت نحو عماد.

جلست بصمت إلى جانب خالتها وحاولت ألا تنظر إليّ. نادتني هيام لتعرّفني إلى ريما، فظننتها فرصة جديدة تسمح لي بأن أخبرها أن أوراقها معي، وأنني أودّ أن أردّها إليها مع ملاحظاتي وفق ما طلبت. لم تجدها. «ريما ريما»، نادت هيام. اختفت ريما مجدداً. وانتظرنا ظهورها قبل أن يعود العروسان إلى بيت العروس وأحمل أنا أغراضي وأرحل. لكنها لم تعد. «رحلت» قلت لهيام التي بدا القلق على وجهها. «يجب أن تعذّبني هذه الفتاة، منذ ولدت وهي تعذّبني».

تعرف ريما جيّداً الطريق من النهر إلى بيت خالتها. بحثنا عنها بين الأشجار على ضفتَي النهر، «ريما ريما»، وفي الأرض الجرداء... بحثنا عن سيارتها بين السيارات، ناديناها. اتّصلنا بهاتفها النقّال. ضاعت ريما مجدّداً. أكملت اللعبة وحدها. اختارت أن تختفي. «لكنها لا تحمل مفتاحاً للشقّة»، قالت هيام. لم نجدها في مدخل البناية أيضاً. طلبتُ من العروس هيام ألا تقلق وأن تحتفل بساعاتها الأولى مع عماد. حملت حقيبتي ووضعت فيها الكاميرا مع أوراق ريما. غرقت في السيارة التي كنت قد استأجرتها وعدت إلى غياب ربيع.

"وصلت إلى الحديقة قبل موعدي مع ريما بساعة. شربت رائحة القهوة من كوب بلاستيكي حملته معي. شربت كذلك شوقي إلى ربيع وغضبي منه. فكرت في أن أكتب له كي لا أكسر لعبة الصمت بيننا. أردت أن أكتب له عن رغبتي الملحّة في أن أصبح أُمّاً. ماذا أكتب لربيع الآن؟ كيف يمكن أن تُكتب حياة ومشروع حياة جديدة؟ أريده أن يهدأ، أن يحبّني فقط ويثق بي، أن أنام على صدره كلّ ليلة وتملأ أنفه رائحةُ شعري الذي يعشقه. في الكتب أجد ربيع. أجده في كلّ مكان وكلّ شيء، في أجمل الصفحات أقرأ عينيه. في الكتاب الأسود أيضاً أحمله معي."

هالة كوثراني: صحافية وكاتبة لبنانية. مديرة تحرير مجلّة لها الصادرة عن دار الحياة وتكتب مقالة أسبوعية فيها. صدرت روايتها الأولى "الأسبوع الأخير" عن دار الساقي.




ISBN 978-1-85516-307-2
9 781855 163072 >